هديل حمد
السجن الفلسطيني
رواية

السجن الفلسطيني

اسم الكتاب: السجن الفلسطيني

اسم الكاتبة: هديل حمد

نوع العمل: نصوص

الرقم الدولي EBIN: 16-1-410-251023

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2025م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

@ bassmabook

bassmabook@gmail.com

المملكة المغربية

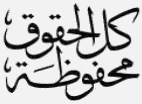

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. ولا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو كان، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

السجن الفلسطيني

نصوص

هديل حمد

كلمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من علمني أن أكتب، وإلى من جعلني أشعر أن الحروف وطن، إلى من علمني أن أكتب رغم الانهيار، وإلى من جعلني أؤمن أن الحبر قد يكون عزاء الروح في زمن الحرب.

إلى تلك النسخة الصغيرة مني التي حلُمتْ أن تكتب كتابا..

ها قد فعلناها يا صغيرة...

إلى أولئك الذين كانوا بداية النور في طريق لم أتوقع أن أسلكه.

تقديم للكتاب

بقلم الدكتور عمرو حمد

أنزف من قلب أرض أثخنتها الجراحات، وأزيز الطائرات وحممها القاتلات..

أنزف والقيود والأسلاك الشائكات المحاصرات.

لا يقاس الوقت هنا بالأيام أو الدقائق والساعات، بل بالثواني واللحظات..

هذا ليس كتابا عن الزنازين والجلادين، بل عن الأرواح التي قتلت قبل أن تولد،

عن الصرخات التي كبتت وقهرت..

أكتب عن الصمت الثقيل...

أكتب عن حديث يضج بألف حكاية ورواية.

هذه زفرات صوتي وأنات أصواتهم ...

هذه عبرات حكايات لم تُرو، ونبضات صرخات لم تسمع، وجروح نازفات لم تشفَ.

عشنا بين الدخان والدمار نتلمَّس بصيص أمل ..

وسط العتمة نتماسك حتى لا يسقط الحلم...

لكن الألم أحياناً يفرقنا والخوف يقتلنا، والصمت يصبح أقوى من الصوت...

أكتب لأن الكتابة ستبقى شاهدة أننا كنا هنا.

أكتب عن من رحل أو سيرحل ..

أكتب عن من قاوم وسيقاوم...

أكتب عن من سيبقى وفيًّا للعهد والوعد والأرض...

لعل حرًّا يسمع أو يلبي ويجيب..

نعيش أوقاتاً عصيبة ولحظات مريرة

أدار فيها العالم ظهره لنا.

لكننا رغم كل شيء...

ما زلنا زيتوناً وتين...

ثابتين راسخين..

قلاعاً شامخين...

ما زالنا نبضاً ويقين ...

قلما وأنين ...

شوقًا وحنين...

ما زال فينا من يحمل الراية ويروي للنهاية آيات النصر المبين.

المقدمة

ليست القضبان وحدها ما يصنع السجن.

الفلسطيني مولود يعرف الزنزانة بشكلٍ آخر؛ زنزانة تتسع لتشمل: الشارع، البيت، المدرسة، المستشفى، وشاطئ البحر الذي يرى ولا يلمس.

في غزة العزة، الحياة ليست حياةً كاملة، هي أشبه بمحاولة يائسة للتنفس تحت الركام، لزرع الورد في أرضٍ مفخخة بالخذلان، لكتابة قصيدة وسط انقطاع التيار الكهربائي، وهدير الطائرات، وأصوات الزنزانات وهي متعمدة لإنهاك وإفلات الأعصاب، وتوطين أنياب الأرق وإشاعة القلق والتوتر النفسي ولإبادة خلايا الدماغ العصبية.

رغم كل هذه الحروب النفسية باستعمال أسلحة الدمار الشامل، يبدأ الناس كل صباح هنا يومهم بحساب ما تبقى من خبز، وبطارية، وكرامة... ثم يكملون بقوة تشبه المعجزة، كأنهم خلقوا من الصبر والصلصال معا!

هذا الكتاب ليس شهادة سياسية، ولا وثيقة صحفية، إنه مجرد صوت فتاة من غزة، جمعت قصصا من بيوت مهشّمة، وقلوب مكسورة، وأرواحٍ لم تستسلم بعد...

أكتب، لأن الصمت خيانة، ولأن هناك من يعيش بيننا ويختنق دون أن يراه أحد.

في بلادنا، ليست الحرب وحدها من تقتل.. الصمت أيضًا يقتل.

الصمت على الجريمة خيانة، الصمت على الجوع خيانة.

الصمت على طفولة تُدفن تحت الأنقاض خيانة، الصمت على وطن يُمزَّق كل يوم خيانة.

السجن الفلسطيني ليس مجرد اسم، بل هو واقع نعيشه!

هو صوتنا حين نُجبر على السكوت!

هو وجعنا حين لا يسمعنا أحد!

هو كتاب نكتبه لنكسر هذا الصمت، ولنبدّد الظلم والعنف الممارس علينا علنا.

لأننا إن لم نكتب، سنغدو جزءا من الخيانة، وإن لم نصرخ، فنصبح شركاء في دفن الحقيقة.

سجل يا تاريخ إن استطعت أن تظل شريفًا أنت أيضًا ولم تتواطأ مع الحكام الجدد، إننا شعب غزة لم نكن خونة أبدًا، بل شرفاء وكفى!

الفصل الأول البيت الذي يشبه الزنزانة

ليست الزنزانة هي التي تقبع في سجن صغير، بل قد تكون مدينة بأكملها.

يمر الليل على أهل غزة كأنه امتحان بقاء: لا كهرباء، لا ماء، لا دفء، فقط أصوات الطائرات، ورائحة الموت، وصدى الأنين.

الطفل لا ينام في سريره، بل في حضن أمه..

يضع يديه على أذنيه كي لا يسمع صوت الانفجار، ويغمض عينيه كي لا يرى دموعها.

وفي النهار، لا يذهب إلى المدرسة أبدًا، بل يقف في طابور الخبز، يحمل كيسا أكبر من جسده، وينتظر دوره في برد قارس، أو شمسٍ حارقة، وربما يعود دون خبز، لكنه يعود دائما أكثر نضجا وأقل طفولة!

الطفلة في غزة تحفظ أسماء الشهداء أكثر من أسماء الألعاب،

هي لا تعترف بـ "باربي"، بل تتناساها عمدًا.

هي لا تريد أن تنتمي إلى باقي أطفال العالم، بل تحلم بحليب دافئ، أو بلحظة هدوء دون قصف.

الأم لا تطبخ، بل تجمع رماد الأمس لتشعل به يومها، الأب لا يخرج للعمل، بل يخرج بحثا عن بقايا طعام، أو عن مكان آمن يحتمي فيه أهله.

في غزة، لا تسير الحياة إلى الأمام، بل تدور في حلقة ضيقة، ووسط هذا الواقع الموحش، تنشأ حكايات صغيرة، حزينة، لكنها صلبة.

البيت الذي يشبه الزنزانة في غزة، لا يقاس بحجمه، بل بفقده.

وكل بيت خسرناه، ترك فينا شيئا لم نستطع تعويضه.

بيتنا الصغير، ذاك الذي "هاجرنا إليه"، لم يكن قصرا، لكنه كان لنا، كانت جدرانه تضيق، لكنها كانت تحضننا، اليوم أصبحنا نازحين، عالقين في بيوت الغرباء، والخيم التي لا تعرف الدفء، ولا الخصوصية، ولا حتى الأمان.

الغريب صار أحن من القريب، أو هكذا بدا، حين انكشفت المعادن وتبعثرت الأقنعة، فالخيمة لا تستر شيئا، حتى الوجوه والنوايا.

نصحو وننام داخل خيمة، روتين يومي من الانتظار ولا شيء، نحاول أن نخلق من بين طينتها ذكرى جميلة، أو لحظة ضحك صغيرة نكسر بها صمت القهر.

لكني أختنق؟!

الخيمة ليست بيتي، والبيت الجديد ليس لي، والحياة التي أعيشها الآن ليست أنا.

أنا مجبرة!

مجبرة، أن أكون الفتاة التي تأقلمت مع المكان، مع الغربة، مع الفقد، مع خيمة لا تحتوي سوى الحزن!

البيت الذي يشبه الزنزانة ليس فقط ضيقًا، بل هو المكان الذي يطفئك من الداخل، وأنت ما زلت واقفًا فيه، وإن كان البيت من جدران، فهناك بيوت أصبحت سجونًا.

رغم كل شيء، لم نعد نعيش فيها كما نشاء، أجبرتنا الحياة أن نصبح أسرى داخل جدرانها، نتحرك وفق أوامر أرباب الطبيعة الجديدة.

إن هدأت أجواؤهم خرجنا، وإن غضبوا وزمجروا وزأروا، عدنا لنختبئ.

منذ بدء الحرب، صار أذان العصر إشارة للنهاية، فيما مضى كان موعدًا للصلاة، اليوم صار موعدًا للاختفاء.

تفرغ الشوارع، تختفي الضحكات، يعود كل شخص إلى واقعه الأليم، وكأننا نهرب من البيوت، ثم نعود إليها مرغمين، كأننا نعود للسجن خوفًا، لا شوقًا.

وفي زاوية أخرى من هذا السجن الجماعي، هناك قصة لا تُنسى.

إحدى هذه الحكايات كانت حكاية فتاة تُدعى آية، والتي عاشت اثنتين وعشرين سنة في حضن والديها، كانت البنت الوحيدة بين خمسة إخوة، استشهد أحدهم في بداية الحرب، لكنها بقيت، رغم كل شيء، زهرة لا تذبل.

كانت آية محطّ أنظار كل من حولها، تحسدها الفتيات على جمالها الفريد، كانت تضيء بطريقة مختلفة كل صباح، وتملأ المكان دفئا بابتسامتها.

في كل ركن كانت تترك أثرا، في كل زاوية صوتا من ضحكتها،

وفي كل قلب عرفها ذكرى جميلة، كانت تنشر السعادة دون أن تحاول، فقط بابتسامتها، فقط بعينيها اللامعتين.

لكن في تلك الليلة، انتهى كل شيء، نامت آية مطمئنة، فوالداها إلى جوارها، والمنزل، رغم الحرب، ما زال قائما.

قالت في نفسها: "كل شيء سيكون بخير، طالما أمي بجانبي، وأبي هنا، لن يصيبنا سوء".

لكنها لم تصح على ضوء الشمس، بل على ضوء أبيض بارد.

ونقطة مصلٍ معلّقة فوق رأسها، صوت الأجهزة يحيط بها، وصرخات مدوية، بل خطواتٌ مسرعة، وممر طويل لا يشبه بيتها.

لم تكن تعلم أين هي؟! لم تستوعب ما حدث، كانت في حالة غيبوبة قصيرة، ثم استيقظت...

كانت أول من اقترب منها خالتها.. مسحت دموعها، وقالت بصوت مختنق:

"آية يا حبيبتي، أنت مؤمنة بقضاء الله، صح؟ ماما وبابا سبقونا على الجنة، راحوا على مكان أحسن منا، عظّم الله أجرك".

لم ترد آية بشيء، لم تصرخ، لم تسأل: كيف؟ أو ليش؟

كانت دموعها هي التي تحدّثت، كانت تردّد فقط: "يا رب، يا رب، يا رب".

ورغم كل شيء، حاولت آية أن تقف على قدميها من جديد، كانت إصابتها تطالها وتمنعها من المشي بسهولة، لكن عزيمتها كانت تمشي بها ولو زحفت.

خلال فترة علاجها، تعرفت على مجموعة من الفتيات، كُن مثلها ناجيات من القصف، يَعِشْنَ في ذات مركز النزوح، ويجمعهن وجع واحد.

لم تكن آية تعرف أن في قلب الحطام يمكن أن يولد الدفء، لكنهن كن سنداً لبعضهن، سرن مثل الأخوات.

كان الحزن يجمعهن، لكن المحبة كانت تقف في وجهه، ضحكاتهن البسيطة، مشاركاتهن الآلام، ومحاولاتهن تزيين الجدران الباردة برسومات جميلة، أو آيات قرآنية مطمئنة، أو حتى عبارات تفاؤل...

كانت تلك محاولاتهن لتهذيب السجن، ولزرع روح الإيجابية في حياتهن، كأنهن قررن أن يكن نقيض الحرب.

ففي مكان ضيق خانق، صنعن مساحة واسعة للحب، ولعدم الاستسلام، ولرفض اليأس، والخنوع.

وفي ظل السواد، أشعلن شمعة من الصحبة الحقيقية، ورغم أن كل واحدة منهن كانت تحمل قصة وجع مختلفة، إلا أنهن آمن أن الصداقة لا تُقاس بالسنين، بل بالمواقف، وأن السند الحقيقي هو من يربّت على كتفك في لحظة انكسارك، لا من يصفّق لك عند نجاحك فقط.

في قلب الزنزانة الكبيرة وُلدت صداقة، وفي قلب الصداقة، عادت آية إلى الحياة، وأصبحت آية اليوم محط انتباه وأنظار الجميع، لم تكن فتاة عادية، بل كانت الدليل الحي أن من ينهض من بين الركام يولد من جديد أقوى، ومن جذور الوجع نُعلن فجرا جديدًا.

نُعلن ولادة استثنائية رغم الوجع، رغم الألم، رغم الدمار، رغم الفقد الذي لا يعوَّض.

باتت آية أقوى، تحاول، تقاوم، تكافح، تسعى بكل طاقتها لأجل مستقبلها، تدوس على آلامها وتبني حياتها من جديد، حجرا فوق حجر، أملًا فوق أمل تتدرج وهي تصعد على سلالم طموحاتها وأهدافها..

كانت إذا ابتسمت، شعر من حولها أن النصر ممكن، وإذا نظرت إلى السماء، تمنى كل من رآها ألا يُخيبها الله عزَّ وجل.

كانت آية رمزا مختلفًا، بل قدوةً رائعة، رمزا لكل من ظن أن غزة قد تموت، ولكل من اعتقد أن غزة قد تُباد، ولكل من اعتقد أو سيعتقد أن الفتاة الضعيفة لا تنهض أبدًا.

آية رمز للصمود الذي لا يقهر، ورمز للكرامة التي لا يهدر دمها، والتي لن تُدفن أبدًا.

في غزة، هناك آلاف من "آية"، بعضهن وجوهٌ ناعمة خُدشت بالنار، لكنهن يملكن قلوبا صغيرة اتّسعت للحرب، وستتّسع للمزيد من ساحات الوغى والحب معا، وفي آن واحد.

وحدها غزة، المدينة الوحيدة في العالم الناطقة بجمال أسطوري.

فقط لأنها تُخرِج من بين الركام طفلة لا تُشبه باقي الطفلات، طفلة تقف على قدم واحدة ...هي آية.

طفلة تُعلّم العالم أن الحياة لا تُقاس بطولها، بل بقدرة القلب على البقاء علَى قيد حياة لها معنى وقيمة وقداسة..

قلبٌ مُصرّ رغم المعاناة، ورغم الموت المحيط بها من كل الجهات؛ فغزة ليست فقط زنزانة، غزة هي الأم التي تنجب الأطفال وسط الحصار، وآية كانت واحدة من هؤلاء الأبطال.

الفصل الثاني: الشتاء الذي لا يأتي بالدفء

بدأت حرب غزة في السابع من أكتوبر، وفي قلبها دخل الشتاء علينا بدون إذن، بدون دفء، بدون رحمة.

كأنه جاء حليفًا للحرب، لا موسمًا من الله.

أتذكر تلك الأيام الأولى بكل تفاصيلها.

في البداية، كنا في بيتنا نحاول أن نقنع أنفسنا أن الأمور ستمر، لكن القصف لا يمر، والنيران لا تعرف النوم.

فبدأت رحلتنا مع النزوح من مكان إلى آخر، والشتاء يطاردنا أينما ذهبنا، بردٌ يصفع وجوهنا، وأعين الناس تصفع قلوبنا.

نظرات غريبة، كلمات قاسية، تصدر عن أناس ما عرفناهم ولا عرفونا، كأننا نحن الجريمة، لا الضحية.

نعامل كغرباء، كعبء، يخنقهم ويقاسمهم ما يجدر أن يكون لهم وحدهم فقط .. رغم أننا كنا نحمل وجعا يكفي قارات...

وفي إحدى أبرد الليالي، اضطررنا للذهاب إلى المستشفى، لم يكن للعلاج، بل للبحث عن مأوى.

نمنا على بلاط المستشفى، البارد حدّ الوجع، وكانت أجساد إخوتي الصغار ترتجف! وأنا عاجزة عن احتضانهم بما يكفي.

ذاك البرد لم يكن شتاء، كان طعنة.

لكننا كنا محظوظين، ففي ذات الليلة، كانت هناك عائلة أخرى تنام في الشارع.

المطر ينهمر، وطفل يرتعش، وأب يبكي من القهر، يبكي لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا لأطفاله، يرى أجسادهم تتجمد أمامه، ولا يملك سوى دموعه.

وفي زاوية أخرى من الحكاية، عائلة نامت جائعة، لا طعام، لا دفاية، لا بطانية.

كلنا نعلم أن الطعام يشعل النار في الجسد، يشعل الحياة، لكن أطفال غزة ناموا جوعى في أقسى ساعات البرد الموحش..

مرَّ علينا أشرس شتاء، أنيابه زرقاء ما اختارت الطبيعة أن توجه أسلحة دماره سوى للغزيين!

نعم، نحن كنا نردد: هات يا ربي هل من مزيد!!!!

كل ليلة باردة، بل شاحبة كنا نعيش شبه حياة..

وكنا على قيدها! فقد كانت تبرع كل ليلة في خطف روح بريئة، إما من الجوع، أو من البرد، أو من الخوف.

وكأننا كنا في طوابير ننتظر دورنا لنؤديه على أحسن وجه ناطقين بالقسم أننا حتى إن استشهدنا فنحن سنظل أحياء في ذاكرة الإنسانية الحقة.. نعم فقط الحقة الأصيلة..

أنتم من تقرؤون وتدمع أعينكم الآن هل ما زالت إنسانية العالم على قيد حياة؟!

لا ألومكم عيشوا حياتكم على منهج وطرائق إنسانيتكم.. نحن بغزة لا نحتاج عبرات ولا تحالفات ولا تنديدات!

الرجال!

رجال غزة صامدون لا حول لهم ولا قوة، والآباء بلا قدرة، وكبار السن ينهارون بصمت، والصغار يصمدون بصمت أكبر.

الشتاء في غزة ليس موسما عابرا، إنه سجن آخر، سقف من قماش، وبرد لا ينتهي، وحنان ناقص، ودفء مكسور.

وكل ما سبق... مجرد دموع ليلة لا تجد من يجففها.

عبد الله فطورك عند الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن، رغم البرد القارس، والجوع، والخوف، كانت في غزة وجوه، شباب ما مسها الخوف، بل كانوا جنودا... جنودا مش بزينة رقمية، بل بحلم، وصوت، ونية صافية.

كأن الله زرع فيهم قوة غريبة، قوة تذهلك، تبكيك، تحييك، وتجدّد فيك كل نبض للحياة من جديد، بطاقة كبيرة، بعنفوان أكبر، بإيجابية وتفاؤل، بوعد على البقاء.

من بين هؤلاء كان عبد الله، شاب في السادسة عشرة من عمره، قلبه أنقى من المطر، وعقله مليان بصور المقاومين.

أتذكر تلك الليلة جيدًا فهي موشومة في ذاكرتي الغزيرة!

كنا جالسين على مائدة بسيطة، نحاول أن نتناول شيئًا، نُمنّي به أنفسنا قبل أن يحرمنا القصف من شهية الحياة!

وفجأة، وقف عبد الله وقال لي بحماس:

"بتعرفي يا سارة؟

نفسي أكون من المقاومين، نفسي أكون واحد منهم"!

ضحكت، وسخرت منه، وأردفت قائلة بدون تحفظ: "بلا هبل يا عبد الله!

لساتك صغير... ستة عشر سنة، بعدين بدهم الواحد يكون ملتزم منيح عشان يصير زيهم، وأنت لساتك طايش.

اخرس، اسكت، إحنا بحرب، ما بينفع نحكي هيك".

ضحك وسكت، بس عيونه كانت تنطق بوهج غير متداول وبإصرار وألمعية ما سكرت أبواب حلمه!

كل يوم كان يحكي لي عنهم، عن شجاعتهم، عن صمودهم، وأنا أطنش وأقول له: "ماشي يا عبد الله، الله يهديك"، لكن هو كان يعرف شو بده، حتى لو ما كنا نحترم كلامه وقتها.

ثم جاء ذلك اليوم الملعون، اليوم الذي دخل فيه الاحتلال بريًّا، وكانت منطقتنا أول منطقة يطلب منا إخلاؤها فورا.

استيقظنا جميعا مفزوعين نجمع حاجياتنا تحت القصف، نركض ونحن نحمل أطفالنا وخوفنا وبعض أعباء من الحياة كنا نعتقد أنها ضروريات.

خرجنا من البيت، وإذا بعبد الله يلحق بنا ويوقفنا، قال لي: "يا أختي، يا سارة.. هذا وقت أروح".

صرخت فيه: "أمانة يا عبد الله، لا تروح!" وبكيت بحرقة...

أمي أيضا توسلت إليه: "أمانة يا ما، خليك معانا، ما بنقدر بدونك يا ما، يا حبيبي، إحنا بحرب، ما تروح".

قال عبد الله لأمه بنبرة هادئة، وكأنه سمع النداء بعينيه: "يا ما، الرسول ناداني، قال لي: يا عبد الله، بدياك فطورك اليوم عندي، تعال لا تتأخر".

انهارت أمي بالبكاء، وبكيت معها، وكل دمعة كانت تترجى أن يبقى، لكن عبد الله كان رايح، وكان عارف وين رايح.

أمي احتضنته وقالت له بصوت مخنوق: "استودعتك الله يا ما، الله يحفظك، سلّم لي على أبوك، وقل له إنا مشتاقين".

رحل عبد الله واختفى من عيوننا، لكنه ما اختفى عن قلوبنا.

وبعد أسبوع جاءنا الخبر الذي كنا نخاف أن نسمعه، لكنه كان يتسلل إلينا كل ليلة:

استشهد عبد الله...

كنا نعرف، لكننا نحمل أملًا كاذبا في صدورنا، نقول: يمكن يرجع، يمكن نسمع صوته، يمكن نضمه مرة أخرى، لكنه راح!

نعم:

رااااح.. رااااح.. رااح.

عبد الله راح لفطور عند الرسول، راح لمكان أحنَّ من هذا العالم البارد، راح وهو مبتسم وتركنا نبكي في واحدة من أبرد وأشد الليالي شتاء على قلوبنا.

في غَزَّةَ لا أحدَ ينام دافئا، ولا أحدَ يشبع، في كل ليلة ينام الأطفالُ على أرضٍ مبلولة بأغطية ترتجف، وقلوب تجهل الدفء!

الشتاء هنا لا يعني المطر فقط، بل يعني الرطوبةَ التي تتسلل إلى العظام، والجوع الذي ينام على الوسادة ذاتها.

في غَزَّةَ يطفأُ الليل دونَ كهرباء، وتغلقَ الأعينَ على أصوات الطائرات التي تروي الحكايات. وترثي بطولاتها وأمجادها حكايات تلو الحكايات!

وفي كلِ بيت، في كلِ خيمة، هناك طفل ينتظر صباحا مختلفًا، لكنه لا يأتي...

طفل له موعد مع أجراس الخذلان وليست أجراس الحصص كباقي أطفال العالم..

ولكن أعدكم لن نخذلكم سيأتي هذا الفجر.. هذا الغضب الساطع!

أراه آت.. آت.. آت!

هذا الشتاء لم يكن أبدا بغزة عادلًا؛ جاء على مدينة عزلاء، وعلينا كغزيين عزل!

وزاد من خنقَتها، حتى صار البردَ وجعا، والجوعَ رفيقًا، والأمل حلما مؤجَّلًا.

في غَزَّةَ الشتاء لا يمرُّ، بل يبقى، ويتركُ أثره في كل جسد صغير، وشمًا على الجباه، وشمًا محفورا على الأغطية، وشمًا على الأجساد وعلى الذاكرة، وعلى كلِ قلبٍ موجوع.

الفصل الثالث: الخبز أمنية منسية في غزة

صار الخبز أمنية منذ أول أيام الحرب.

انقطعت المساعدات، ثم توقف إدخال الطحين، وأُغلقت أغلب المخابز...

ومن يومها بدأت طوابير الخبز، طوابير طويلة ومخيفة؛ رجال يزاحمون النساء، ونساء تدفع الرجال، إذ الحياء اختفى وسط صراع الجوع!

الناس صاروا يمشون مسافات طويلة فقط ليجدوا لقمة لأولادهم، وأنا وأختي كنا نمشي تحت القصف وصوت القناصين فوق رؤوسنا فقط لنحضر طعاما لإخواننا الصغار، كان هذا حال أغلب البيوت الغزية.

أما ألمي... هل أتحدث عن ألمي؟ فتلك قصة أخرى، صاروا يستهزئون ويسخرون من الناس، والناس على الناس.

نصف الماء حلو ونصفه مالح، لكننا كنا نعرف الفرق، كنت أقاتل، أقف بوجه الشاب وأقول: "ما بدنا مي مغشوشة". كنت أصر، وبعد معاناة وتعب يرضى في النهاية أن يملأ لي ماء حلو.

كنت أحمل جالوناتي بوجع وكبرياء.

كنا نحاول أن ندبر حالنا، لكن كل يوم يمر نكتشف أن الفساد والظلم والأذى ما دخل من الخارج فقط!

نعم، صرنا نعيش في غابة، الغلبة فيها للأقوى.

صار الحي يخون الحي، وصار القريب أكثر شرًّا من الغريب.

بعضهم أخفى الطحين عن الناس الجائعة، واحتكروا الخبز وكأنهم لا يرون الأطفال تموت من الجوع، تحت شعار: "الطرق مغلقة، ما بأيدينا".

باعوا ضميرهم وكرامتهم.

اكتشفنا أن الصهاينة ليسوا وحدهم أعداء، فبيننا عملاء أوغاد خونة مثلهم، وربما أسوأ! هم كائنات غريبة باعوا دينهم وإنسانيتهم من أجل شوال طحين، ومن أجل رضا محتل خرب بيوتنا.

صرنا نحكي مع ربنا، مش من الضعف من كثرة الوجع والقهر،

صرنا نحلم أن نعيش مثل باقي البشر، نحلم أن يعود رغيف الخبز إلى طعمه، وأن نعود نحن كما كنا.

صرنا نواجه جميع المنافقين، الفاسدين، وما عاد فينا ساكت!

الناس بطلت تسكت؛ من يغش كنا نصرخ عليه، ومن يسرق كنا نوقفه.

صرنا نرد لبعض الماء، نُعيش الخبزة، ونشيل عن بعض. وأمي وسط كل هذا الصراع كانتَ أمي تحكي الظروف بتبين معادن الناس وإحنا معدنا منيح فوق كل اشي.

كنت أطلع بأخوي الصغير وأقول لحالي: ما بدي يكبر ويتعود عالذل، ما بدي يتربى عالهوان.

صرنا نعدّ الأيام، مش عشان تنتهي الحرب، بس عشان نشوف إذا ضل فينا إشي من إنسانيتنا واقف، لأن غزة، مهما صار فيها، ما بتموت، ما بتهون، حتى وهي محاصرة، فيها ناس لسه بتحكي حق، ناس جوعانة بس رافعة راسها شامخة للفوق.

اكتشفنا أن الصهاينة مش لحالهم أعداء، في بينا ناس مثلهم، ويمكن أسوأ؛ ناس باعت دينها وإنسانيتها عشان شوال طحين، وعشان رضا محتل خرب البيوت.

ما كانت الجدران وحدها تشهد على صمت الحرب، بل كانت بطون الأمهات الخاوية أكتر من يتكتم!

في كل بيت بغزة، أم تخبي جوعها ورا ابتسامة، وتقول لصغارها بصوت حنون: "أنا شبعانة، كلوا إنتوا يا ما". بس الحقيقة كانت أقسى من الكلام؛ هي ما ذاقت شي من أيام، وكل الأمهات

ما راح تذوق شي ولا راح تتذكر طعم الخبز.. إلى أن ينتهي جوع فلذات كبدها أو تنتهي الحرب!

هن بس كُن يكتفين بمرارة الصمت.

كانت أمهاتنا تأكل الحزن كي لا يلتهم الجوع أبناءها.

في الزحام كان هناك طفل صغير أصر أن يذهب وحده ليحضر الطعام من السُّوقية.

قال لأمه بصوته الصغير الأجش: "أنا قوي وبعرف الطريق".

أراد فقط أن يعود إليها بطبق دافئ، أن يرى عينيها تضيئان ولو للحظة من رائحة الأكل.

لم تعلم أن هذا الإصرار سيؤدي فاتورته، وثمنه حياته.

في الطوابير الطويلة والانفلاتات، في طنجرة الطعام التي كانت تغلي على النار! اختفى صوته بين البخار والدموع...

مات محروقًا قبل أن يذوق لقمة؛ لم يمت من القصف ولا من الرصاص، بل من الجوع، من الطوابير، من رغبته البريئة في أن يشبع ويضيء أمه، أن يشبعها ويشبع جوعها.

بحثت عنه الأم الثكلى بين الجثث على الأرض..

طفلها لم يعد، عاد الصحن فارغًا، والرغيف محترقًا، والقلب مكسورا.

في غزة، لا أحد يموت من الشبع، فالناس تموت وهم يحاولون فقط أن يقفوا على أقدامهم.

في غزة، لم يكن الخبز مجرد رغيف، بل كان حلما بعيدًا وصراعا يوميًّا من أجل البقاء.

في طوابير الخبز، تُخاطر حياة أمة كاملة، حيث يقف الإنسان تحت الشمس والبرد، يحمل معه أملًا صغيرا ألّا يأتي الغد بلا خبز، وأن يظل الصباح عنوانا للحياة.

ووسط كل هذا الألم، تظل غزة تصرخ بصمت، تخبر العالم أن هناك أطفالًا ينامون جياعا، وأمهات ينتظرن بفارغ الصبر، ويرتجين خبزا قد يكون أملهم الوحيد.

الفصل الرابع: الطفل الذي صار عجوزًا

في غزة لا يولد الطفل كما في أي مكان آخر، بل يولد ومعه قائمة من المسؤوليات.

يولد وفي عينيه حزن لا يشبه عمره، وفي يديه يحمل وجعا أكبر من كفَّيه الصغيرتين.

في أماكن النزوح، تراه يرقد لا للعب، بل ليجلب الماء، وينتظر لا قطعة حلوى، ويسهر لا لأن النوم باغته، بل لأنه يحرص على إخوته النائمين خوفًا من قصف مفاجئ.

في غزة، الطفل لا يسأل عن لعبته، بل عن مكان اللجوء التالي!

لا يبكي لأن لعبته كُسرت، بل لأن صديقه استشهد، لم تكن عيناه تشبهان عيون الأطفال؛ فيهما حزن قديم وندبات عمرها أطول من عمره...

نظراته تسبق سنوات عمره..

وتصرخ دون صوت: "كبرتَ وأنا ما زلتَ صغيرا".

طفل كان يفترض أن يحفظ جدول الضرب، صار يحفظ أسماء الشهداء ومواعيد القصف وأماكن الدمار.

كان يفترض أن يحلم بدراجة جديدة، لكنه صار يحلم فقط بأن يحصل على دور قريب في طابور التكية، أو أن يلحق شاحنة المياه العذبة قبل أن تتفرق.

في كل صباح، لا يحمل حقيبة مدرسة، بل يحمل همَّ البيت: متى يخرج ليجلب الخبز؟ متى يستطيع أن يصطف بدل أمه المريضة؟ كيف يملأ جالون الماء قبل أن تنقطع المياه؟

هو ليس طفلًا، ولم يكن له الحق أن يكون كذلك، لا يملك رفاهية اللعب، ولا رفاهية المدرسة، ولا رفاهية ضحكة من القلب. حرمت روحه من النقاء الذي كان من المفترض أن يملأ طفولته كما يملأ طفولة أي إنسان.

حرم من أن تكون له روح حلوة، وكل ما بقي فيها هو الثقل، والغصة، والتعب المزمن.

كان إذا رأى أطفال العالم يلعبون في صور الهواتف، ينظر إليهم نظرة بعيدة، كأنهم من كوكب آخر!

لا يحسدهم، بل يستغرب فقط: أهكذا من المفترض أن نكون؟ فلماذا نحن لسنا كذلك؟

هو اليوم لا يفكر في المستقبل، لأن الغد نفسه ليس مضمونًا.

كان كل همه كيف يخرج من الدار مبكرا، كيف يلحق التكية، وكيف يجد دورا في طابور الماء ليشرب قبل أن ينتهي.

هذا الطفل لن يقول يوما: "يا ليت طفولتي تعود"، لأنه لم يعش طفولة أصلًا. ولن يقول: "كانت أيام الشباب حلوة"، لأنه قد لا يلتحق بحياة الشباب...

جسده يكبر، لكن قلبه مستنزف منذ زمن.

وإذا نظرت في عينيه، سترى فيهما لمعة حزينة عميقة، ونضجا قبل الأوان، يحكي كل ما عاشه: الذل، والفقد، والحرمان، والخوف، والخذلان.

الطفل لا يكبر ببطء، بل يسحب نحو الشيخوخة؛ شيخوخة الروح، والتعب، والتقصير الإجباري في كل الأحلام.

إياد، طفل صغير من مخيم جباليا، هرب مع عائلته تحت القصف، مشيا على الأقدام بين الركام والدمار، والموت يلاحقهم في كل زاوية. حين وصلوا إلى المدرسة التي لجؤوا إليها، ظنوا أنهم في أمان، لكن جنود الاحتلال اقتحموا المدرسة، وأذلّوا الناس وهم نازحون بلا مأوى ولا حول ولا قوة لهم إلا بالله.

ضحكوا وهم يلعبون لعبة سموها "حفرة الموت"، أجبروا الرجال والأطفال على الاقتراب من حفرة عميقة، وقالوا: "من يسقط فيها يموت".

كانوا يضحكون وسلاحهم في أيديهم وأرواحنا في قبضتهم، يلعبون بألم الناس كأنهم في سيرك، ويختبرون إنسانيتنا وهم بلا إنسانية.

هرب إياد مع أمه وأبيه وإخوته، ونجوا من أيدي الجنود بأعجوبة، لكن الرصاصة ظلّت تطاردهم حتى بعد الحاجز.

وفجأة، سمع صوت سقوط عنيف خلفه، فالتفت ليجد جسد أبيه الضخم يرتطم بالأرض، وقد أصابت رصاصة قناص رأسه.

في لحظة، تغيرت ملامح إياد، شدّت أمه يده وركضت به بعيدًا، لكن نظرته ظلّت هناك معلّقة بجسد والده الممدّد على التراب.

من يومها، إياد لم يعد طفلًا، صار هو الأب، هو الذي يجمع الحطب، هو الذي يحمل الهم، هو الذي يجيب عن كل مسائل أمه ويقول: "أنا معك، لا تخافي".

نزحت العائلة إلى خيمة قرب البحر، وبدأ فصل جديد من المعاناة: لا بيت، لا أمان، لا مستقبل، فقط نجاة مؤقتة.

سألته يوما: "ما هو حلمك يا إياد؟" ظننت أنه سيقول: بيت، ولعبة، ومدرسة، أو حتى كيس خبز.

لكنه نظر إلي والدموع تغلي في عينيه، وقال بهدوء موجع: "بدي أروح عند بابا".

تجمد قلبي، وما عدت قادرة على الكلام!

في تلك اللحظة فقط، أيقنت أننا لن نكون أطفالًا. أطفالنا ليسوا أطفالًا، هم رجال صغار، أرواحهم مشبعة بالحزن، وقلوبهم شاخت قبل أجسادهم... شاخت قبل الأوان.

كبر إياد قبل أوانه، تحمل ما لا يُحتمل، ورأى من الحياة ما لا ينبغي أن يراه أحد في عمره الصغير، في عينيه ظلَّ سؤال بلا جواب: هل سنعود؟ هل سينتهي كل هذا؟ وفي قلبه وطن صغير اسمه "بيت"، بيت دُمر أو فُقد أو صار ذكرى في صورة قديمة.

لم يعد يهمه العيد، ولا الألعاب، ولا الحلوى. كل ما يريده الآن أن ينام ليلة دون قصف، أن يأكل وجبة دون دموع، أن يضحك دون خوف... أن يكون طفلًا، فقط طفلًا.

الفصل الخامس: غزة بدون صوت

كنا نصرخ، لكن العالم كان يضع موسيقى صاخبة..

كنا نستغيث، لكن الرد الوحيد كان صمتا ثقيلًا يشبه التراب الذي يغطي جثثنا.

في غزة مات الأطفال وهم ينادون: "ليش محد بيسمعنا؟

- وين الأمة؟
- وين الإسلام؟
- وين الناس؟".

لكن لا أحد تحرك، ولا رمشت له عين!

بينما نحن نحمل موتانا، كانوا هم يحملون الكؤوس ويرقصون، بينما نحن ندفن أطفالنا تحت السماء المكشوفة، كانوا هم يغنّون تحت أضواء الحفلات.

غزة، المدينة التي تنزف باسم فلسطين، وتُذبح باسم الأمة، لكن لا أحد من الأمة يقف معها. حتى الدعاء صار خافتا، حتى الخطابات أصبحت باردة، حتى التضامن صار قصة إنستجرام مؤقتة وصورة عليها هاشتاغ، ثم تُنسى.

غزة بدون صوت.

لأن الصوت الذي يخرج منها يقسم، والصوت الذي يخرج لأجلها لا يسمع، نحن نموت لأننا نؤمن، نموت لأننا نرفع راية لا تُمزَّق، راية فلسطين، راية "لا إله إلا الله".

لكن رايتنا مرة يتيمة ومرة ثكلى.. وحدها ترفرف في العتمة.

صمتهم علينا ليس ضعفًا، بل قرارا، وخذلانهم لنا ليس سهوا، بل خيانة.

غزة ما عادت تملك وقتا للحكايات ولا حيلًا للصراخ، لكن كل جدار فيها يشهد، وكل حجر فيها حافظ للأسماء!

تت غزة اليوم، فدماء شهدائها الأبرار ستظل وفية للعهد، تذكر العالم أن سكوتكم انحياز لعين وشراكة في الجريمة وفي لطخة العار المفتعلة!

غزة لم تصرخ، بل سكتت، ليس لأنها تعبت، فقط لأن الصراخ ما عاد مجديا.

غزة تنزف، لكن بدون ضجيج.

جثث أطفالها تُسحب من تحت الركام، ولا مذيعا نطق بالجرأة أو الشجاعة أو الإنسانية فقطع النشرة، ولا دولة أوقفت الموسيقى. ولا نكست الأعلام!

غزة مستمرة في الوقوف على رجليها، على ضخ الدماء في حياتها وعلى تفعيل تطبيقات كرامتها وإيمانها بالحق الذي لا يطلب، بل سيغتصب قسرا..

لكن العالم جبان أماما يتبختر ضدها.

الكل بات متفرجا، ساكتا أصم، بل أبكم...

شافونا وإحنا نلملم أشلاءنا..

شافونا وإحنا نركض بالدم، شافونا ندفن ونغطي ونحمل ونواسي ونموت، وما أحد حرك رمشه، ولا نطق ببنت شفة!

الكل استباح دماء غزة الشهيدة:

الدول، الشعوب، الزعماء، الإعلام، الطبيعة! حتى من كنا نحسبهم إخواننا في الدين.

وفي غزة، أن تكون صحفيًّا يعني أن تمشي على حد السكين، كل يوم هو معركة جديدة، وكل خبر قد يكون آخر ما تكتبه. وعلى أنس، كما على أي فلسطيني، فُرضت صعاب لا تُحتمل، لكنه كان يعرف أن مهمته أكبر من الخوف... مهمته أن ينجو الصوت.

رأى الموت ألف مرة، وهددوه ألفين، لكنهم لم يستطيعوا إسكات الكاميرا التي كانت عيننا، ولا القلم الذي كان قلبنا.

عاش بين الدمار الذي يملأ المكان، يحكي عنّا، وعن أطفالنا، وعن البيوت التي صارت غبارا.

كان مثل أي شاب، يحلم أن يجلس مع عائلته، أن يرى أبناءه يكبرون أمامه، لكنه اختار أن يقف على الجبهة الأولى... ليشهد، وليشهد العالم معه.

تعب أنس كثيرا في محاولاته الوثيقة ونقل الحقيقة للعالم، نام في الشوارع، وعلى الأرصفة، ضحى براحته وكل ما يملك من أجل أن يصل صوته إلى من يستمع. هذا الرجل لم يكن فقط مراسلًا، بل كان نبض الناس، وحب الناس له كان دليلًا على صدقه وصدق رسالته.

حاولوا بكل الطرق أن يسكتوا غزة، أن يخمدوا صوتها، أن يطمروا الحقيقة تحت الركام، لكن غزة لن تصمت. وأنس كان جزءا من هذا الصوت الذي لن يُخمد. وحتى لو رحل، سيظل هناك مئة مثل أنس، يحملون الكاميرا والقلم، يواصلون نقل الحقيقة، يصرخون باسم غزة، ويثبتون أن صوت هذه الأرض سيظل مستمرا، مهما حاولوا إسكاته.

رحل أنس، لكنه ترك وراءه إرثًا من الشجاعة والصدق، صوتَا يتردد في أرجاء غزة، في قلوب من لا زالوا يقاتلون، في وجدان كل من يرفض أن ينسى.

غزة مش بس تُقصف من فوق، هي تُطعن في الظهر من كل جهة!

العالم لم يكتف بالفرجة، بل شارك في قتلنا وإبادتنا بصمته، بسلبيته، بتجاهله.

الخذلان أكبر من القصف، وأقسى من الدمار.

غزة اليوم ليست محاصرة فقط من الاحتلال، هي محاصرة من خيانة العالم، وغدر القريب، وبرود البعيد.

غزة ما عادت تُصدّر شيئا ولا تستورد، ولا تراهن، هي واقفة وحدها على حطامها، تحاول أن تحبو، أن تمشي، أن تظل على قيد الحياة، تحاول أن تصنع نورا من بين الرماد، لكن لا صوت لها، ولا صوت لنا.

وغزة ساكتة، بل صاخبة! لكن وجعها يملأ السماء!

ولا تنسوا فكرة التضامن الإلكتروني العظيم، إذ بات مسرحا للمزايدات ولركوب موجة على موجة لكسب البوز.

تصاميم حزينة، صور وملفات شخصية ملونة بالأحمر، وفيديوهات فيها بكاء ونشيد وفلتر نار..

إحنا مش محتاجين تضامن إلكتروني، ولا بدنا كلمات مؤثرة، وصمتكم مخزٍ يتكرر في كل قصة.

التضامن الحقيقي مش بوست ولا ستوري، ولا علم على بروفايل، ولا رقصة حزينة في مسرح خارجي.

أطفالنا ما بيعيشوا من ملايين اللايكات، ولا بيشربوا من دموع تيك توك!

بدناش هاشتاغ، بدنا فعل، بدنا إنسانية مش مواساة شكلية...

وبين الذي يكسب لكيلا يُحس بتأنيب الضمير، أو لكي يحصل على تفاعل. غزة ليست ترينـد، ولا نكبة موسمية، ولا فقرة درامية تنزلها، وبعد ذلك تكمل سهرتك!

غزة أدت أكثر من واجباتها حد التفاني، وقفت وحدها، وحملت عن الأمة كلها أمانة لن تستطيع الجبال حملها.

غزة لم يداخلها خوف أو شك، وما سجدت لغير ربها، وما ساومت، وما باعت، وما خانت ولا غدرت..

غزة تعبت... تعبت جدًا، لكنها ما استسلمت ولن تفعل أبدًا..

خانها القريب، وتخلى عنها الغريب، وتخاذل عنها من ادَّعى الأخوة والإيمان، لكن غزة يقينا منها أن لها رب عادل يحميها.

الذين عاشوا فيها، والذين استشهدوا، هم يدعون لها من قلوبهم، ومن يقينهم بالنصر الآتي لا محالة.

نراه غير واهمين يرفرف فوق سماء قلوبنا..

كلهم وكلنا أبناء غزة نعلم أن الفرج والعوض ورد الاعتبار ليس ببعيد، وأن الله هو الحامي، هو الجابر، هو الناصر..

هو الذي سبحانه يعتصرنا ويمهلنا، ولكن أبدًا لن يهملنا..

غزة تصمد وحدها، دون تعويل على أشباه البشر!

لأن الله معها، تستصرخه وتستنجد به منتصبة القامة، شامخة وإن كان الله معها فمن ضدها؟!

الفصل السادس: أمهات الشهداء

منذ زمن بعيد، كان أهل غزة يستقبلون خبر استشهاد أبنائهم بليلة استثنائية مميزة!

تمتزج فيها الزغاريد بدموعٍ لا كباقي الدموع..

لا تستساغ أبدًا..

الانتصار، والفرح يبدوان كغصّة لا تزول!

فرح لأنهم يعلمون ويؤمنون أنَّ أبناءهم الشهداء سيتوَّجون بجوار النبي ﷺ، وغصةٌ تلتف حول القلب لا تفارقه لحظة!

يخفينها خلف قناع الصلابة، ويتجلّدن أمام العيون، لكن ما إن يهدأ صخب الدنيا من حولهن، حتى ترفرف الذاكرة في زوايا الروح، لتعيدهن إلى الجرح الأول، حيث يعشن كل تفاصيل الفقد، بكل أوجاعه، بكل مصائبه، بكل ما يثقل الأرواح ولا يزول.

تتخيل فلذةَ كبدها في أول ليلة له بالقبر!

صحيح أنّ قلوبنا جميعا موجوعة، لكن وجع قلب الأم الثكلى أعمق، أشرف، وأرعن.

هكذا هي، تفكّر فيه في كل لحظة وهو في قبره، وتتساءل: يمكن يكون بردان تحت التراب؟

يمكن يكون زعلان مني؟ معقولة! تكون زعلان مني يا ماما لأنني لم أُعدّ لك الطعام الذي تحبه؟

هكذا تتخيله يرفع يده ليطلبها إلى جانبه، وتتمنى لو تستطيع أن تكون معه..

تدفئه، تحدّثه بكلامها، وتهدّئ روحه.

ويجيء يوم الوداع، والناس من حولها يدفنونه بسهولة، لكنّها تدفن جزءا من روحها.

تسمع الأصوات، لكنّها تشعر أنّ القبر صار ضيقًا عليه، وتشعر أنّ ابنها قد وقع عليه ظلم لا يُحتمل، فلا يكون ردّ فعلها سوى الصمت والسهو، تخاطب داخلها في ثرثرة حزينة...

في كل بيت بغزة هناك شهيد، والشهادة ليست فقط اسما محفورا على حجر، أو موشوما على جبين ذاكرة، بل جرحا عميقًا لا يشفى، جرحا خلف ويخلّف ندوبا في القلب والروح.

في كل بيت بغزة قصة ألم، قصة لا تُحكى إلا بالصمت، بعيون الأمهات التي لا تنام، وبقلوب الآباء التي ضاعت بين أيديهم وبين الحزن.

في كل زاوية، في كل شارع، في كل ساحة لعب، في كل حوش، فضيحة الجراح مشاعة للجميع، موجعة، بل حاضرة حضورا لا باهتا ولا شاحبا.

أبدًا، لا تُنسى هذه الكدمات، وصعب أن تندمل هذه الجراح..

أبدًا أبدًا.

أمهات تعيش لحظة الفقد كل يوم، وأطفال بلا آباء، يتامى، وأحلام معلّقة على جدران مهدّمة، ووجوه باردة كأنها حجر. غزة لا تنسى شهداءها، ولا تنسى دموع ثكلاها. الجروح متعبة، لكن الأرواح ما زالت صامدة، تحمل الألم، تبني الصبر، وتزرع الأمل وسط الخراب.

هم أرقام، لكنهم ليسوا إحصائيات...

يتكاثرون في الأخبار، لكن لكل شهيد اسم، ولكل اسم قصة، ولكل قصة قلوب تحبه وأرواح تفتقده، وأنفاس تخفق له، ونبض لا يهدأ، ودموع لا تتوقّف.

مش بس عند الشهداء اللي ما بتنقال أسماؤهم، هم أولادنا، إخوتنا، أصدقاءنا، أحبابنا، أبطالنا. بين كل اسم واسم، حكاية، وجع، وحلم انقتل معاه.

الفصل السابع: حلم جامعي في خيمة

الشباب في غزة يملكون أحلاما كبيرة رغم كل شيء، رغم الحصار والدمار، رغم الألم والمعاناة، تتملكهم عزيمة لا تقهر وإرادة لا تتشقق أبدًا.

في خيمة صغيرة على طرف المخيم، شاب فلسطيني يدرس على ضوء مصباح بسيط، لا يملك كتبا كثيرة ولا كهرباء ثابتة، لكنه غني بحلم عملاق ومستقبل مستعد لبنائه درجة درجة.

وفي مكان ثان، فتاة عاشت سنين خارج غزة، تعلمت وبنت مستقبلها هناك، لكن بعد غياب والدها وسفرها، قررت الرجوع لغزة، لتكون سندًا لأهلها، ولتضحي برفاهية مستقبلها بالخارج، وتختار استكمال دراستها عن بعد، رغم كل الظروف الصعبة.

الشباب في غزة يواجهون تحديات كبيرة في دراستهم، لأن المتطلبات المادية أو تكاليف الدراسة الجامعية غالية الثمن، بل مهولة جدًا، ولا يستطيع الطلاب في غزة توفير كل الأدوات. فمثلًا، الشبكة العنكبوتية ضعيفة، بل متقطعة ومهترئة، والكهرباء غير

مستقرة في ظل الانقطاع المتكرر، لذلك تتحول الدراسة إلى معركة يومية بين الرغبة في التعلّم والحاجة إلى البقاء فقط على قيد الحياة.

ومع أن الكثير من الناس فقدوا كل شيء، ظل الشباب متمسكين بالتعليم كحبل نجاة غير واه، لم يتخلوا عنه أبدًا، فهو الأساس في حياتهم، وهو حبل الوريد المتصل بمعنى وجودهم.

يحاولون بكل الطرق شق غبار العلم، والبحث عن فرص للعمل، وهم دائما في رغبة أكيدة للتطوع في المنظمات الخيرية والتضامنية والجمعوية، وعبر تقديم مبادرات للبقاء على قيد الإنسانية، ولحمل الأمانة الملقاة على عاتق كل غزي. كانوا دائما على استعداد لتقديم يد المساعدة لمجتمعهم، في ظل هذه الحرب الظروف وفي ظل الظروف القاسية.

كان الشباب ولا يزالون في غزة، لا يقتصر حلمهم على مجرد الدراسة، بل كانوا دائما يحلمون بالتخرج بشهادات عليا تعبر عن جهدهم، عن إبداعهم وتألقهم، وتكون ثمرة تعبهم، فهي تحكي عن كل ليلة بيضاء سهروا فيها، وعن كل لحظة صبروا فيها، وضحوا بنومهم، بسكينتهم، بهدوئهم، براحتهم، وأحيانا حتى بلقمة عيشهم.

يحلمون بوظيفة تضمن لهم حياة كريمة، تساعدهم على بناء مستقبل معتدل، مستقبل بلا غلو ولا إفراط، فقط ليحققوا ذواتهم ويصبحوا السند الحقيقي لأهاليهم ولأوطانهم.

نعم، هؤلاء الشباب، رغم كل الصعوبات، ما زالوا يملكون نعمة الحلم والطموح، ويسعون لتحقيق عمل يبقيهم شعلة مضيئة في حياتهم وفي أعماق ذواتهم. حلمهم هذا سينير طريقهم، ويجعلهم يشعرون أن التعب لا يذهب سدى أبدًا.

شباب غزة يطمحون لأن يصبحوا هم التغيير نفسه، ليبنوا مجتمعا أخضر، يقتلع كل الطفيليات من الجذور، ويهيئ تربة خصبة للبناء، لا الهدم، وللإبداع والإنتاج، لا للاستهلاك فقط، وليتركوا صوت غزة مدويا في الآفاق، ليس بصراخ الألم وصخبه فحسب، بل بصمود الإنسان الذي لا تعرف الهزيمة له طريقًا.

إن الحرب والدراسة أصبحتا ثقلًا لا يُحتمل على كاهل شباب غزة، فكل شاب وشابة اختلط في داخلهما صوت الرصاص بصوت الكتاب، بين صوت الأمل في بناء مستقبل جميل ورضي، وبين جعجعة اليأس الذي يتسلل ببطء، وبغدر عميل مستعد لخيانة قلوبهم عند أو إحساس بالضعف وبأن القوة التي كانت فخرا وعزة تبخرت عندما خارت..

شباب غزة يحاولون التركيز على الدراسة، وفي الوقت نفسه يسعون لترتيب أفكارهم وأحلامهم، لكن الواقع يعيدهم مرارا إلى خانة اليأس.

هناك منطقة رمادية تعشش في أعماقهم، تحمل كل طقوس الخوف والرعب من مستقبل باهت، من غد ملامحه شاحبة!

أصبحوا أحيانا يشكون في أحلامهم، وفي مبتغياتهم، وفي طموحاتهم وآمالهم.

ورغم كل هذا العسر، لا يعرف اليأس طريقًا إليهم. يقاتلون من أجل تحقيق الحلم، لأنهم يعلمون أن الاستسلام يعني خسارة كل شيء، وأنهم إن استباحوا دم التحدي سيصبح عنوان الخسارة على حياتهم عارا لا يغسل لا بثأر ولا باستغفار...

ها أنا أشاركم قصة كانت مشاهدها مجرد فصل من مشاهد كثيرة. الدراسة في أجواء الحرب والنزوح مهمة تكاد تكون مستحيلة، وكأنها طُرفة ثقيلة الظل على قائمة الأولويات.

أن تفتح كتابا وأنت في بيت غريب، محاط بأصوات البكاء والجوع، وتحاول التركيز في حل معادلة أو حفظ فقرة أدبية..

بينما خلفك صرخات الأمهات أو دوي القذائف، فذلك ضرب من الجنون لا أكثر.

لم يعد طموح الطالب في غزة هو التخرج أو الحصول على شهادة، بل صار أكبر أحلامه أن يعود إلى الخيمة ومعه كيس خبز يسد به جوع أهله. كثير من الطلاب انقطعوا عن الجامعة، بل

اتجهوا مجبرين إلى نقاط توزيع المساعدات أو إلى البحر، لعلّهم يعودون ببعض الطحين.

محمد، شاب في مقتبل العمر، كان واحدًا من أولئك الذين تقلص حلمهم الجامعي حتى انحصر في أمنية أن يكون في بيته، مع أسرته، دون عجز ولا جوع!

والده عاجز عن العمل، وإخوته ينامون وهم جياع، ومحمد يراقب كل ذلك وقلبه ينفطر.

في أحد الأيام، سمع من صديقه يوسف أن شحنة طحين ستدخل عبر البحر، فقرر الذهاب دون أن يخبر والدته حتى لا تقلق.

اجتمع محمد مع يوسف وأبي علي وعدد من شباب المخيم قرب البوابة، حيث تلتقي الإشارات القليلة للإنترنت.

عادة ما يتجمعون هناك لتبادل الأخبار، أو للعب، أو فقط للهروب من كآبة الخيام، لكن ذلك اليوم كان مختلفًا، فقد كانت هناك فرصة للحصول على الطحين، وفرصة الحياة والموت في الوقت نفسه.

توجه الناس نحو شاطئ البحر، المكان أصبح مزدحمًا لدرجة أنك لا تستطيع أن تخطو خطوة دون أن تصطدم بأحد. وصلت الشاحنات، وكانت الأوامر واضحة: ممنوع التوقف، وإن توقفت فستداس!

اندفعت الشاحنات بسرعة جنونية، ودوس على كل من في طريقها، وسقط عشرات الشهداء تحت عجلاتها، فقط لأنهم أرادوا إطعام أطفالهم.

محمد، مثل كثيرين، ركض نحو إحدى الشاحنات، تشبث بكيس طحين مسحوب من الشاحنة وهي تتحرك، فوقع أرضًا، ممسكًا به كما يمسك الإنسان بالحياة. حمله وركض بأقصى ما يستطيع، وعاد إلى خيمته عند الفجر، فتنفس بصعوبة، ووضع الكيس أمام أمه التي انفجرت بالبكاء، ليس فقط من الفرحة، بل من القهر، لأنهم لم يتناولو الخبز منذ عام كامل، واعتمدوا طوال تلك الفترة على العدس والبقوليات.

هكذا كان حلم محمد الجامعي، ولم يكن وحده، بل هم الآلاف مثله!

كانت طموحاتهم يوما الحصول على شهادة، لكنهم اليوم يلهثون خلف كيس طحين، يسحبونه من تحت عجلات الموت.

ورغم نجاته، لم يكن محمد إلا واحدًا من مئات حاولوا الركض وراء الحياة ولم يعودوا.

كان هناك شاب آخر، لا نعرف اسمه، في بداية عمره، خرج فقط ليجلب الطحين لعائلته، لم يحمل سلاحا، كان يصرخ فقط،

أراد أن يحمل كيس الطحين قبل أن يُحرم منه، لكن الشاحنة لم تدس على حياته فحسب، بل أصابته رصاصة طائشة.

لا أحد يعلم ما الذي حدث، فقد اختلطت دماؤه بكيس الطحين، ورأيناه يسقط بصمت، ثم غاب.

لم يكن هناك من تعرَّف على هويته، لا يملك بطاقة، ولا اسم، ولا أحد سأل عنه وسط الزحام، حتى أنه كاد أن ينسى تماما.

لو لم يتدخل مجموعة من الشباب الطيبين، الذين رفضوا أن يترك هكذا، لكان طعاما للكلاب والحيوانات الضالة.

أحبوه بقلوبهم، غطوه بهدوء ببطانية قديمة، ودفنوه على عجل في مقبرة صغيرة بجانب شارع البحر.

على قبره الصغير، وضع شاهد كتب عليه فقط: "شهيد مجهول الهوية". لم يعرف أهله أنه مات، ولا أخبر أحد أمه أن ابنها لن يعود، لا بالطحين، ولا بالحياة.

بل عاد ملفوفًا بالتراب، وحيدًا، بلا اسم، بلا وداع.

في وطني، قد يخرج شاب مثل محمد ليحضر كيس طحين فلا يعود، قد يدفن في شارع مهجور بلا اسم، وتُنسى ملامحه تحت قيود وأصفاد الغربة في وطنه!

لكننا لن ننسى، ولن ننسى أبدًا.

أنا أدرس لأجله، أكتب لأجله، وأحمل حلما جامعيا في خيمة مهددة بالرصاص لأجله.

لم يعرف أحد اسمه، لكنني عرفته، فهو يشبه أخي، ويشبه زميلي، ويشبه قلبي...

كلما أمسكت كتابي، أشعر أنني أكمل الحكاية التي لم يُتح له أن يكملها.

وأخبر العالم أن هناك شهيدًا بلا اسم، لكن دمه كان يحمل أمانة الجميع.

وفي أثناء تلك الأيام، في مدينة غزة، وتحديدًا جنوب القطاع، في أيام الصيف الحارة، اجتمعت مجموعة من البنات من مخيمات مختلفة.

اتفقْن على وقت للانطلاق معا إلى نقطة الناس لنلتحق بالامتحانات عن بعد، ونساعد بعضنا البعض.

بدأت سارة بسرعة تنادي مريم: "استنوني، يلا يلا بسرعة لازم نمشي!" فمشينا معا في فترة الظهيرة، نحاول الوصول بسرعة لنلتحق بالامتحان. وصلنا إلى نقطة الناس وبدأنا الدخول إلى قاعات الامتحان، لكن العملية كانت بطيئة جدًا.

سارة حكت بصوت قلق: "يا رب يقوى الناس، بدنا نخلص بسرعة!".

بدأت سارة تمسح دموعها، وفجأة انقطع التيار!

اعتذر الشاب المسؤول قائلاً: "والله آسف، بس النت كثير ضعيفة اليوم". رسبت سارة في الامتحان، لكنها بعد محاولة التواصل مع الدكتور وفهم ظروفها، أعطاها فرصة لإعادة الامتحان، والحمد لله نجحت.

هذه قصة من بين آلاف القصص، قصة شباب وبنات في غزة الذين يواجهون التحديات بكل قوة، ولا تسمح الصعوبات أن توقفهم أو توقف أحلامهم البهية.

أنت الذي تقرأ، لا تبحث عن محمد بين صور الخريجين، فمحمد صار ظلًا في ركن خيمة، أو اسمًا على كيس طحين!

لا تستغرب!

لا تسأل عن علاماته، فقد امتحنه الموت قبل أن ينال شهادته، ولا تنتظر حفلة تخرجه؛ فآخر أيَّامه كانت دعاء في الظلام، وصوته انطفأ تحت ركام الانتظار!

لكن محمد لن ينفعه الصمت، صمتكم..

أكتب عنه، وأكتب عن هؤلاء الطلاب، عن هؤلاء الشباب مثل محمد.

أحكي للعالم أن الطموح لن يموت في غزة، وأن هناك شبابا أرادوا فقط أن يعيشوا، أن يتعلموا دون أن تُسرق دفاترهم أو

تُخضب بألوان الدم، أن يحلموا دون أن تُداس الكتب تحت أقدامهم الهاربة من القصف.

إن كنت حرا، فاحمل صوتهم!

وإن كنت طالبا، فاجعل علمك سلاحا يخترق الظلام!

وإن كنت إنسانا، فلا تمر من هنا كأن شيئا لم يكن! هؤلاء كانوا هنا، ويستحقون أن يسمع العالم صوتهم، وأن تُكتب حكاياتهم رغم كل الصمت، رغم كل الخراب، رغم كل الموت.

الفصل الثامن: الغربة في الوطن

قد يكون الإحساس بالغربة داخل مكان ما أمرا طبيعيا عندما تغيب الألفة المتوخاة، لكن أحيانا نجد أنفسنا نعيش غربة داخل وطننا، أو حتى غربة مع ذواتنا، هذه الغربة قد تسكن أعماق الروح!

في غزة، ورغم أننا نعيش على أرضنا، إلا أننا نحس باغتراب من نوعٍ خاص، اغتراب بفعل الحصار، والحواجز، والدمار، والدموع الحارقة، بل القاهرة!

إنها غربة تدفعنا إلى الشعور وكأننا غرباء عن وطننا!

نخرج من بيوتنا، ننتقل بين الشوارع، لكن كل شيء يطوقنا ويضع الأصفاد على تحركاتنا.

كل زاوية تحكي قصة ألم، وكل شارع يشهد على فقدان أو جرح.

الغربة هنا ليست غربة مسافات ولا كيلومترات، بل هي غربة داخلية، غربة نفسية، تختصرها نظرات الناس، وصمت الحواجز، وبرودة القلوب.

الغربة هي أن تعيش بين أحبابك، لكنك تشعر أن لا أحد يسمعك، ولا أحد يراك، ولا أحد يفهم وجعك.

في غزة، لم نعد نعيش كما كنّا؛ تغير كل شيء، حتى البيوت التي كنّا نحس فيها بالأمان لم تعد لنا.

صارت الجدران غريبة، والطرقات محاصرة، والسماء أقرب إلى السقوط منها إلى الطمأنينة.

نمشي في الشوارع التي عرفناها كما نعرف ملامحنا، لكن كل شيء تبدّل!

الزوايا مغطاة بالركام، البيوت تهدّمت، والذكريات تكسرت مع كل حجرٍ سقط.

بيتي لم يكن مجرد جدران، كان يحتضن قلبي، وضحكاتي، وبكائي، وفرحي، وحزني، وصمتي، وصراخي!

واليوم أعيش في خيمة يسمونها "ملجأ"، لكنها لا تشبه الملجأ، بل تشبه الغربة.

الخيمة باردة، لا تعرفني، ولا تحتوي على ملامحي، وأنا نفسي لم أعد أتعرف على روحي فيها.

قالوا إن الوطن هو الدفء، فكيف إذا أصبح الوطن نفسه هو الغربة؟!

غربة من نوعٍ خاص، لا تشبه غربة السفر، ولا غربة المنفى، بل هي غربة الإنسان في أرضه وهو يشعر بها.

حتى اللغة أصابها الصمت، البيت ما عاد أمانًا، المدرسة ما عادت ملاذًا للعلم، المستشفى ما عاد للشفاء، والوطن ما عاد وطنًا.

نعيش فيه، لكننا لا نشعر أننا ننتمي إليه!

صار وكأننا ضيوفٌ مؤقّتون، ننتظر الرحيل... أو القتل.

الكتابة عن غزة ليست مجرد رواية أحداث، بل هي حمل ثقيل من المعاناة المشتركة، لأن القلوب التي تتأثر وتتعاطف تصبح جزءا من القصة.

على قطعة كرتون مرمية في الطريق أجلس ...

بيتنا وأمي لم تعد تضحك!

لا أفهم لماذا؟!

صرت أحن حتى للمدرسة، للدرج، لصفّي، لصوت الجرس، لمكاني على المقعد، وللكتب التي كنت أشكو من ثقلها.

وفي إحدى زوايا الشارع، كانت فتاة نازحة تجلس على الأرض، وتكتب في دفترها الممزق:

"قالوا لي: هذا بيتكم الجديد... لكنني لا أحفظ زواياه، ولا رائحته، ولا حكايته.

بيتي رحل، وقلبي ظل واقفًا عند باب لم يعد له وجود".

تأملت كلماتها... فبكيت. نعم، بكيت وانهمرت دموعي، لأني فهمت تماما ما تعنيه.

أنا أيضًا فقدت باب بيتي، وفقدت ملامحي في وطنٍ يشتكي مني لكنه لا يراني.

كل صباح، تفتح عينيها على صوت الحصار، وتخرج لتجد شارعا يئن تحت وطأة الدمار.

البيوت مهدّمة، الحارات خاوية، والقلوب أثقل من الحجر. تمشي بين أهلها، لكنها تشعر بأنها وحيدة... غريبة في أرضها، كأنها ليست سوى روحٍ تائهة تبحث عمن يحميها.

الغربة ليست فقط غياب الأحبة، بل أن تفقد الأمان، وأن تشتاق للحظة سلام، وأن تحلم بحرية التنفس... بحرية الحركة ... بحرية الحياة.

تجلس مع أصدقاء الطفولة، لكن الكلام ثقيل، والوجوه تحمل علامات السهاد.

الجراح ليست جسدية فحسب، بل جراح في الروح، تزرع اليأس، وتغرس الإحباط، وتطرق القلب حتى يئن.

في وطنٍ محاصر، يصبح الحلم بأبسط الأشياء رفاهية: حلم السفر، حلم العودة إلى المدرسة، حلم المستقبل.

لكن الغربة في الوطن تعلّمك أن تصمد رغم كل شيء، أن تحب أرضك أكثر، رغم الألم.

الغربة هنا ليست اختيارا، بل فرضًا وإجبارا من واقعٍ قاسٍ.

ومع ذلك، تبقى غزة صامدة، ترفض أن تكون مجرد غريب في وطنها، وتصنع من الألم قصة لا تنتهي.

لم نغادر البلد، لكننا غرباء!!

في الشوارع التي عرفناها، نشعر وكأننا نمر مرور الزوار.

وفي البيوت التي لجأنا إليها، نحس أننا لسنا أصحابها، وفي المدارس، وفي طوابير الخبز، وفي صوت المؤذّن، وحتى أمام مرآة البيت!

نشبه الغريب أكثر مما نشبه أنفسنا.

غربتنا ليست في الابتعاد عن المكان، بل في تحول المكان إلى شيء لا يشبهنا، لا يرحمنا، ولا يحتوينا.

غزة التي كانت حضننا، أصبحت زنزانة، والمخيم الذي كان حياة مؤقتة صار حياة كاملة لا نهاية لها.

نعيش على الأرض، لكننا نشعر أننا نُدفن تحتها.

نتنفس الهواء، لكننا نحس أنه يختنق في صدورنا.

نحمل مفاتيح البيوت، بعمق أكبر.

كنت أظن أن الوطن هو الحضن الكبير، والأمان الأول والأخير، لكنني اكتشفت أن هناك أوطانا تتحول إلى سجون مفتوحة.

صرت أخاف من بيتي، من شارعي، من أصوات الطائرات، من صدى قلبي... من كل شيء كنت أحبه.

الغربة لم تكن يوما على السطح، بل هي الغياب العميق للأمان من حولك، حين لا تستطيع أن تطمئن وأنت وسط أهلك.

حين تتمنى الرحيل، ليس طمعا في المزيد، بل لأنك صرت تهرب وتهرب... من القهر، من الحصار، من الذكريات الثقيلة، ومن الجدران التي لم تعد تحمي، بل تحاصر!

صار يوجعني الحنين إلى ضحكة دافئة... أكثر من أي وجع آخر.

الغربة لم تكن يوما سطرا يكتب، بل هي حقيقة دامية حين يختفي الأمان من حولك، وحين لا تجد الاطمئنان وأنت بين أهلك.

يوجعني الحنين إلى ضحكة زمان أكثر من أي شيء آخر!

ضحكة بسيطة، صافية، بريئة، مليئة بالحياة.

اليوم حتى الضحك مكبوت، مكسور، لا يخرج كما كان.

في مراحل قاسية من سلالم الحياة، يصبح الوطن مكانا غير آمن، نهرب منه لأنه لم يعد قادرا على حمايتنا أو الدفاع عنا.

ومع ذلك، ما زلنا نتمسك بجذور الحياة، وكأن في داخلنا إيمانا لا يموت... إيمان بأن الغريب يوما سيعود صاحب البيت.

حين يشعر الإنسان بالتهميش في وطنه، يصبح الأمر كما لو أن الأرض التي ولد عليها لم تعد تعرفه، وكأن البيوت التي كانت رمزا للأمان صارت شاهدة على كل ما فقده... الأهل، الأحباب، البيت، الضحكة.

ومع كل هذا، يبقى في القلب صوت خافت لا يموت، يقول:

رغم كل شيء، هناك أيام تشبه الحياة... أيام ضحكنا فيها من القلب، وأطلقنا القهقهات الصادقة، وتحدّينا البؤس.

واليوم، وسط زحام الخسارات، لم يتبقَّ لنا سوى التأمل، والتفكّر، واليقين... بأن صاحب هذه الأرض لن يتركنا، وأن البيت، مهما ابتعد، سيعود... ولو طال الزمان.

الفصل التاسع: لا تذرفي الدمع

وإن سالت الدموع فدَعيها، وقولي للعالم: نحن لا نبكي ضعفًا، بل لأننا بشر أنقياء لا يعرف الاستسلام والانهزام لنا طريقًا، بل دائما نسمو نحو التحدي والتروي والصفاء.

لا تذرفي الدمع، فأنا ما زلت أراك في قلبي تماما كما تركتك أول مرة!

وسط غربة الوطن وحفر الأيام، برزت قصة حب عذري شائكة بين فتاة من غزة وشاب من الضفة الغربية.

رغم المسافات والجدران، رغم الحواجز وألم الفراغ، كانا يجدان في بعضهما ملجأً من كل وجع.

هي من غزة، قلبها ينبض بالأمل.

هو من الضفة، عيناه تحملان الحنين.

رسائلهما عبر الهاتف، لقاءاتهما عبر الإنترنت، كل كلمة وكل لحظة كانت تذكّرهما بأن الحب قادر على كسر القيود.

لكن الطريق لم يكن سهلًا؛ بل كان شائكًا، مليئا بالعراقيل والحواجز والوجع.

حواجز بينهما لا تُحصى، كل لقاء مؤجَّل بعيد، وكل وداع جرح عميق.

ومع ذلك، ظلا متمسكَين ببعضهما البعض، يحلمان بيوم يجتمعان فيه، يعيشان حبهما بلا خوف ولا قيود، يكتبان قصة حب فلسطينية ترويها الأيام، وتغدو أسطورة أجمل من أسطورة قيس وليلى، أو عذابات جميل وبثينة أو حتى الإيطاليين روميو وجولييت..

في أحد أحياء غزة، كانت تعيش فتاة في مطلع العشرين من عمرها، تحمل بين أضلاعها قلبا أنهكته الخيبات والحرمان، لكنها لم تلجأ يوما إلا إلى الدعاء، بأن يعوضها الله بقَدَر لم يخطر ببالها، ويمنح قلبها ما لم تكن تتوقعه.

لم يكن اللقاء بينهما ممكنا؛ فالمسافة بين غزة والضفة لم تكن مجرد طريق مغلق، بل كانت حدودا وسجونا وجدرانا..

لكن، رغم كل المسافات، ظلّت تحبه؛ وجدت فيه دفء مسح عن قلبها قسوة الأيام، وقلبا يحمل الوطن والحنان في آن واحد.

ومع اندلاع الحرب، تحولت أيامهما إلى رعب، ولحظاتهما الهادئة إلى توتّر وانفعال، وبراءة ساعاتهما إلى قصف للطمأنينة والسكينة!

انقطع الإنترنت، وانقطع الاتصال، لكن قلبه ظل موصولًا بها، مشدودًا بالدعاء لها، والخوف عليها، بل واحتضان آلامها ووجعها ولو عبر ذكرى جميلة.

كان يتفقّد صفحاتها حين يطول الليل، وتقصر عنه رفاهية النوم وسط حروبه الضروس، بينما هي بين أصوات القصف والدمار لم تكن تفكّر بشيء سوى أن تخبره أنها ما زالت بخير، وأنها ما زالت على قيد حياة ...على قيد الأمل.

كلٌّ منهما عاش توتّر الحرب بطريقته، لكنها في النهاية جمعتهما، قربتهما رغم البعد، وربطتهما بشيء أقوى من اللقاء.

الأمل كان لها السند؛ يدعمها في دراستها، ويساعدها على تحمل الضرورات، ويحضّها على الصبر والبقاء.

كانت تكتب عنه، تنهي به فصول الكتاب، وتفتح في قلبها فصلًا جديدًا من الحب المستحيل.

صحيح أنّ لقاءهما بدا متعذّرًا، لكنها ما زالت تعيش على رجاء أن يجمعهما الله يوما، فالحبّ الصادق لا تفرقه الحروب ولا تمحوه السنون.

كان حبًّا خلف الأسلاك، لكنه لم يكن مجرد هواية أو تسلية عابرة، بل كان خلاصها الوحيد.

كلّما ضاقت بها الحياة في غزة، وكلّما علا صوت القصف وخيم الصمت على المدينة، كانت تمسك قلمها كما لو تمسك يداً تنتشلها من الغرق.

كانت تكتب عنه، وله، وبسببه، ومن أجله.

في كل سطر كانت تحاول أن تخلق عالمًا موازيا؛ لا حروب فيه ولا مسافات، لا حواجز ولا عراقيل، لا اضطرابات ولا ضغوطات ولا منغصات!

عالم تراه فيه صباحا، وتمسك بيده عند المساء، عالم تُشرق فيه ولادة فجر جديد.

قال لها يوما: طالما تكتبين فأنت لا تنهارين، وطالما أقرؤك فأنا أتنفّس.

فآمنت أن الكلمة أعمق من كل الحدود، وأقوى من كل القيود.

كل فصل من كتابها كان نافذة تطل عليه، وكل صفحة تحمل اسمه بين السطور؛ حتى وإن لم تكتبه صراحةً، كان يسكن التفاصيل.

أهدت له كتابها عند انتهائه، وكتبت في الإهداء:

إلى من علّمني أن أكتب رغم الانهيار، إلى من جعلني أؤمن أن الحبر قد يكون عزاء الروح في زمن الحرب.

كانت الكتابة مرآتها حين تاهت ملامحها في الحزن، وصوتها حين خنقتها العبرة قبل أن يسبقها البكاء، وذاكرتها حين حاول الموت أن يطفئ ما تبقّى فيها من نور.

قالت له ذات مرة: أنت الوطن الذي لا أستطيع الوصول إليه، ولا الاحتماء فيه، ولا العيش بين أحضانه.

ورغم ذلك، كتبت... بعد أن جمعت فيه شتاتها، ونزوحها وحبها وصمودها.

وعلى الصفحة الأولى خطّت:

إلى الحب الذي لا يجرؤ أن يولد، لكنه يتسلّل في كل نص!

إلى من جعلني أكتب لأني لا أستطيع أن أكون معه..

بعض الرسائل التي لم تصل...

أنا مش ناسيكي.

أنا مش ناسيكي، ولا نسيت صوتك يوم قلتيلي: استناني.

أنا اللي من وقتها واقف بالانتظار!

بس مين فينا بيستنى مين؟

وإحنا بينا حدود ما بتنشاف، بس بتكسر القلب.

كان يكتبلك، بس ما يبعث، يخاف كلماته تزيد وجعك، يخاف تظني أنه نسيكي...

وهو كل ما فيه ما بذكّره غيرك.

بتعرفي؟ أنا ما عدتش أحب الليل... لأنه فيكي بتوجعيني أكتر.

كل مرة بسكّر عيوني، بشوفك بتضحكي، بس صوتك... بعيد. بعيد كثير.

في بلد واحد عاشت قلوب كثيرة متفرقة.

هما الاثنان من تراب فلسطين، لكن بين غزة والضفّة لا جسرا للحب ولا طريقًا للأمل.

كأنّ الوطن مقسوم، ليس فقط جغرافيا، بل عاطفيا وإنسانيا.

كل مرة حاولا معاودة الاتصال والتواصل كانت تعيقهم الشبكة المهترئة، والتي كانت تخرس وتلجم بفعل فاعل كهدية لهم..

باختصار:

كل مرة بتشتاق له، بتكتفي بورقة تكتب فيها: لو كنّا أقرب.

حبهما هو عنوان الغربة؛ غربة تحس فيها أنّك تحب شخصا من نفس وطنك، لكنّك لا تستطيع أن تمسك بيده، ولا حتى أن تسمع صوته وقت الحرب.

لهذا صار الوطن إلينا، لكن ليس معنا.

صرنا غرباء حتى داخل الوطن.

الغربة ليست فقط أن تغادر أرضك أو تبتعد عن أهلك.

الغربة أحيانا تكون أعمق، أوجع، وأقسى.

هي أن تعيش وسط أهلك ووطنك، لكنّك تشعر أنّك غريب فيه!

كأنّك في مكان لا يعترف بك ولا يمنحك حقّ الحياة الكريمة.

لكن رغم كل الغربة، ما زال في القلب متسع للحلم!

اطمئنوا أيها القراء لا زلنا نتنفس، لا زلنا على قيد حياة نتنفس ونحن نغرق وصدقوني باقون باقون إلى آخر نفس..

أنتم فقط عيشوا حياتكم كأننا أسطورة أو خرافة شعبية.. بل اجعلونا لترتاح ضمائركم كذبة منفلتة من صفحات التاريخ الصفراء ..

رسالتي الأخيرة، إن كانت فعلًا الأخيرة، إليك.

إذا انقطعت كل الطرق، وتوقّف كل شيء، وما عادت هناك وسيلة تواصل بيننا، ثق أنك ما كنت مرحلة عابرة، بل كنت حياة كاملة وسط الخراب.

أنا لم أطلب ولا طلبت قبلًا من ربي معجزة، لكني كنت دائما أخفض جناح ذلي بين يدي رحمته لأدعو وأقول: يا رب احفظه، حتى لو ما تلاقينا خليني بس اتطمن عليه.

وكأني بين إغماءة التعب وإفاقة الصحوة كنت أرى استجابة الله عزَّ وجلَّ لدعائي وأطمئن أكثر..

فصوته تعالى كان واضحا وهو يردد لي: (إنه بأعيننا ...).

قد تسرق الحرب صوتي، وقد يخذلني الإنترنت، لكن قلبي سيظل لك وحدك، حتى لو حال بيننا ألف جدار.

بتعرف؟ أنا ما كتبت عنك لأنك مجرد شخص مميز، أنا كتبت عنك لأنك كنت وستظل الأمل الوحيد، اللي ما قدرت الدنيا تمحيه.

لا تذرفي الدمع... ما عاد للدمع معنى.

هو لن يعبر الأسلاك، ولن يعيد ما مضى.

هو هناك، خلف جدار طويل، وأنت هنا، كل يوم تودّعين الشمس بلا وداع!

وإن سأل عنك، قولي له: أنا بخير رغم الخراب، وما زلت أحتفظ بك في قلبي، كما تحتفظ غزة بأهلها رغم الدمار.

في غزة، رغم وجودنا على الأرض التي نحبها، نعيش غربة فريدة من نوعها؛ غربة في الصوت، في الأمان، في الحلم!

غربة تدفعنا للبحث عن لحظة سلام، لكننا لا نجد سوى الصمت خلف الجدران والأسلاك.

نخرج كل يوم، نتحرك بين ركام البيوت، نحاول أن ننسى الألم ونبني حياتنا رغم الحصار، لكننا في كل مساء نعود إلى نفس الغربة التي تلتهمنا... وتنهشنا من الداخل.

وفي قلب هذه الغربة، تولد قصص صغيرة، لكنها كبيرة وعميقة في معانيها؛ قصص حب لا تعرف الحدود، لكن الاحتلال يجعلها مستحيلة.

قصص تضج بالألم وبالأمل في الوقت ذاته، في صراع مع واقع قاسٍ لا يرحم.

هذه ليست سوى حكاية من بين العديد... ثم العديد.

فبالرغم من أنّ فلسطين دولة واحدة، إلّا أنّ الاحتلال زرع فينا التفرقة والشتات، بل اختلق جدارا وهميا أو حدودًا تُفكّك عروتنا الوثقى، وتُحطّم اجتماعنا تحت راية واحدة.

جعلنا الاحتلال قسرا نرى بعضنا كأنّنا غرباء في وطن واحد.

صرنا نكتب: نحن وأنتم، بينما كان المفروض أن نكتب: نحن فقط.

أن تكون الـ. نحن ناطقة باسم جميع الفلسطينيين في جميع البقاع.

جعلنا ننسى أنّ القضية واحدة، وأن الكلمة واحدة، وأن فلسطين لا تقبل القسمة ولا التشظّي، لا على الحدود، ولا على الألم، ولا على الحب المكسور... أبدًا، أبدًا.

الفصل العاشر: أنا فلسطيني

أنا الفلسطيني... ابن القيد والحصار، ابن الشمس التي لا تغيب عن أرضي، لكنها لا تمنحني دفئها.

أنا الذي طُرد من داره، وقيل له: هذا ليس وطنك.

أنا الذي إذا أراد السفر فُتّش كالمجرم، وأُذل على الحواجز، وتُركت عائلته على معبر رفح تُعامَل وكأنها لا تنتمي لبني البشر.

أنا الفلسطيني الذي يقف بالساعات أمام المعابر، بين صراخ الجنود وصمت السماء، ينتظر إذنًا بالعبور كما ينتظر الميت عودة الحياة.

أنا الأسير في سجونهم، تُعَدُّ أعوامي بالبرد والجوع والقيود.

أنا الجائع في غزة، المحاصر في رفح، المهدَّد بالرصاص في نابلس وجنين.

أنا الفلسطيني الذي اعتاد على الظلم حتى صار يصافحه كل صباح، لكنه لا يزال يغلي حين تُمس كرامته، حين تُدنَّس أرضه، وحين يسقط شهيد جديد في الضفة فيرتجف قلبه في غزة.

أنا الفلسطيني كُتب عليَّ أن أقاوم، أن أقاتل، أن أستفز الاحتلال بحجر صغير، أن أرفع رايتي حتى إن سقطتَ.

أنا الفلسطيني الذي فُرضت عليه حياة مثقلة بالقهر، لكنه لم ينحنِ، لم يركع، ولن يركع.

ولكي أصل إلى العالم... لا بد أن أُهان أولًا.

.

.

.

أنا الفلسطيني:

يقفون هناك يصرخون، يرمون الحقائب على الأرض، يعبثون بذكرياتي، بثيابي، بصوري!

وإن أعجبتهم ساعة في حقيبتي سرقوها، وإن أرادوا أن يحرقوا شيئًا أحرقوه!

يقولون: "هي أوامر الدورية"، لكننا نعلم أنهم يفعلون ذلك فقط لأننا فلسطينيون.

نُعامل كما تُعامل الحيوانات، ننتظر بالساعات، وربما بالأيام، وقد يعاد بعضنا دون سبب، فقط لأننا من غزة. فنحن لا نملك هوية ولا وطنا ولا كرامة، وكأن دماءنا ليست دماء بشرية.

أنا الفلسطيني، ابن الضفة التي لم تعد تعرف الهدوء؛ حيث لا نجاة من الخوف، ولا مأمن من اعتقال مفاجئ، ولا ضمان أن تعود حيًّا إن خرجت لتشتري الخبز.

أنا من تعلم أن يُخفي رأيه، أن يبتلع كلماته، لأن الحديث قد يكلفه حريته أو يستدعي سياط الزنازين على جسده. أنا من لا يرفع صوته، لأن الصوت هنا يعتقل.

أنا من يرى جنود الاحتلال يقتحمون البيوت، يكسرون الأبواب، يرعبون الأطفال، يعتقلون الفتيان، ولا أحد يجرؤ أن يسأل: لماذا؟

حتى البنات لم يسلمن، حتى الأطفال يُصفَّدون كالرجال، كأن الطفولة تُهمة في عيونهم!

أنا الفلسطيني... في وطني لا أتحرك بإرادتي؛ على كل طريق حاجز، وعلى كل حاجز احتمال موت قائم.

..

....

نحن الفلسطينيون:

نعم، نحن في أرضنا، لكننا لا نملك حقَّ التنفّس دون إذن! حتى الكلمات أصبحت مرهونة بالخوف، والحديث بات جريمة، والصمت صار أسلوب بقاء.

الفلسطيني في الضفة الغربية ما عاد يشعر بالأمان في أرضه؛ الخوف صار جزءا من يومه، وكأنه أمر طبيعي.

كل شيء يخيفه: الجندي، الحاجز، الطلعة، وحتى الكلمة. لا يقدر أن يبدي رأيه، حتى لو رأى الظلم بعينيه يسكت، لأن الكلام قد يودّيه إلى التحقيق أو الزنزانة، أو يعرضه للضرب والإهانة.

عَندما تبدأ دوريات الاحتلال تجوب الشوارع، يغلق الناس النوافذ والأبواب، ثم تبدأ بعدها حملات المداهمة: تكسير أبواب، اعتقال شباب، ولا يفرقون بين أحد. يعتقلون البنات، ويعتقلون الأطفال.

لا أمان في غزة، ولا أمان لأي فلسطيني، فالطرق كلها مزروعة بالحواجز.

وأنت في طريقك قد يداهمك الجندي فجأة، يوقفك ويحقق معك، وكأنك غريب، كأنك مجرم، وأنت في أرضك. حتى لو لم ترتكب أي خطأ، يظل الخوف يرافقك.

أصبح الحديث مخيفًا، والنقاش مخاطرة، حتى الأهل صاروا يوصون أبناءهم: لا تتحدثوا، لا ترفعوا أصواتكم، احذروا على أنفسكم.

السكوت صار وسيلة للبقاء، والوجع تحول إلى عادة.

الفلسطيني ليس محاصرا فقط، بل ممنوع من السفر، وممنوع قبل ذلك من الكلام.

الأسير الفلسطيني:

الفلسطيني دائما مسجون في سجون الاحتلال، آلاف الأسرى من الشباب والبنات والأطفال والشيوخ، وحلمهم الوحيد أن يخرجوا ليروا الشمس بلا شبابيك، أن يناموا في حضن الأمهات، وأن يشربوا القهوة على سطح البيوت.

الأسير الفلسطيني لا يسجن لأنه قاتل أو مجرم، بل يسجن لأنه مقاوم، مناضل، فدائي، مدافع عن الحق والأرض والعرض. يُسجن

لأنه يرفع الأعلام، لأنه يصدح بصوته: فلسطين حرة أبية، غزة العزة.

يسجن لأنه، وباختصار، قال: "لا" للاحتلال، لأنه كتب كلمة، أو نظَم شعرا، شعر مقاومة... أو حتى لأن الاحتلال شكّ فيه فقط.

سنين الأسر:

سنوات من حياة الأسير، من حياة الأسرى الذين أتحدث عنهم، تمضي بين أربع جدران.

تعذيب نفسي، قهر وحرمان، سلب لحقوق الزيارة، إهمال طبي، غرف عزل، كاميرات مراقبة، تفتيش مستمر، والنوم ممنوع، بل ممنوع أن تعيش بسلام، ممنوع أن تشعر بالطمأنينة أو الأمان.

لا سكون ولا هدوء، فقط مناورات حرب نفسية، رهاب، رعب منتشر، توتر وقلق دائم.

الأمهات ينتظرن مكالمة أو رسالة، ينتظرن ملامح وجوه أولادهن من شباك الزيارة.

كثير منهم لم يرجع، وهناك أسرى استشهدوا داخل السجون بسبب الإهمال الطبي وبسبب التعذيب.

ماتوا بصمت، لم يسمع عنهم الإعلام، لم يهتز لهم رأي عالمي، لم يذكرهم مطبل، ولم يهتف باسمهم هاتف.

ورغم كل هذا القهر، الأسرى صامدون، يكتبون، يدرسون، يحلمون.. وعندما يخرجون، يكملون الطريق، لأنهم مؤمنون أن فلسطين تناديهم، وأنها أمانة معلّقة في رقابهم.

سيف يذكرهم أن الخيانة مستحيلة، وأن الأمانة لا تُباع ولا تُشترى.

ما بعد الحرية؟؟!

لا ينتهي الأمر عند خروج الأسير من السجن، فأحيانًا يبدأ الألم الحقيقي، ويبدأ الوجع الحقيقي، وتبدأ قصة القهر بعد ما يسمى حرية.

الأسير الذي قضى سنين طويلة داخل الزنزانة يواجه حياة غريبة، موجعة، عند كل إحساس بأن كل شيء تغير: الناس، الشوارع، حتى الوجود نفسه تغير.

يحاول أن يعود طبيعيا، لكنه في داخله يعيش حربا لا تنتهي؛ حربا نفسية تجعل منه إنسانًا مختلفًا، غريبا عن نسخته الأصلية. كأنهم زرعوا فيه نفسا أخرى، أو حقنوه بدماء غريبة عن روحه الأولى.

اضطراب ما بعد الصدمة!!

كثير من الأسرى عندما يخرجون من السجون يعانون من آثار ما بعد الصدمة (PTSD).

يستيقظون مفزوعين، يشككون بكل شيء، يخافون من صوت الباب، من نظرة، من أي حركة حولهم.

يعتقدون أنهم ما زالوا داخل السجون، وأن القضبان ما زالت تحاصرهم، وأن عيون الاحتلال ستلقي عليهم كل طقوس التعذيب والتنكيل، وستقلب كل لحظة هناء وطمأنينة.

يعيشون في ترقب مستمر، كأن حياتهم فيلم رعب، بل أحياناً يتجاوز الرعب إلى فيلم مصاصي الدماء؛ مراقبة مستمرة، وتحقيق يبدأ في أي لحظة دون سابق إنذار، مع ترصد دائم.

أحياناً لا يستطيعون التعبير عن آلامهم، فيضطرون لارتداء قناع يقول بصوت باهت ومكتوم: "نحن بخير".

الأقنعة بعد السجن:

هؤلاء الأسرى الذين أصبحوا يلبسون الأقنعة، وطراحهم محطمة، ليسوا بخير من الداخل.

مقصورون، يائسون، وكأن جزءا منهم مات في الحياة رغم أنهم لا زالوا يتنفسون.

الناس تحتفل بحريتهم، لكن القليل فقط من يسأل الأسير: هل أنت بالفعل بخير؟ هل قلبك ينبض نبضاً طبيعيا مثلنا؟ هل تشعر بأنك على قيد حياة حقيقية؟ كيف هو نومك؟ هل تنام قرير العين، أم أنك لا تعرف طعم العمق والرفاهية.

النوم؟

آثار السجن على النفس:

الأسير الفلسطيني... نفسيته منهكة، نبضاته مهترئة، مفاصله متعبة، صفو مزاجه متبلد، مشاعره جامدة، وأحاسيسه مخنوقة. لم يعد يستطيع التأقلم مع الآخرين، حتى لو كانت حبيبته، عائلته، أو

أحباؤه. حتى في الشارع بات غريبا؛ العالم يركض إلى الأمام وهو ظل واقفًا عند لحظة اعتقاله.

ورغم كل هذه الشظايا الموجعة، هناك من يقبل التعافي بالتدرج. فهو يقبل الحياة لأنه وجد حضنا، لأنه صبر، لأنه وجد من يحتويه ويدعمه ويحبه حبا حقيقيا لا مشروطًا.

فكأنه طفل صغير يحبو، بل يتعلم من جديد كيف يعيد الثقة لنفسه والثقة في الآخرين. فيقبل أن يحكي بطء الكلمات، أو يبتسم ابتسامة شاحبة.

الرجوع إلى الحياة يكون رجوعًا لن تفهم كنهه وماهيته إلا إذا كنت أسيرا فلسطينيا في سجون الاحتلال، وقد خرجت إلى الحرية منهكًا، غريبا عن روحك، عن جسدك الأثير الذي يملك ذاكرة لا تلتئم بسرعة، وطريقة اللسان لا تُشفى في وقت وجيز.

لكن المحظوظ هو من كانت ذاكرته قادرة على غلق الأبواب وصدّ الصدمات عن الأحداث، فلا يكون النسيان سوى هدية من الخالق.

آنذاك يتعاطى التعافي بأقصى سرعة... وشتَّان الفرق بين النسختين.

الأسيرة واللاجئ الفلسطيني:

رغم أن السجن يصرخ جروحا لا تُرى بالعين المجردة، إلا أن الأسيرة تظل رمزا للكرامة، تحمل في صمتها حكاية وطن، وفي عينيها ألف وجع، وأبدًا لا تنكسر ولا تستسلم.

لأنك إذا كنت فلسطينيا، فأنت تتعلم كيف تدوس بأقدامك على الألم، وكيف تبتسم رغم الغصة والظلم، وكيف تبني من وجعك طرائق متعددة للحرية.

اللاجئ الفلسطيني يولد على الأرض، لكن ليس في الوطن، داخل الوطن.

يولد والغربة تصير جزءا من اسمه، يحمل صفة لاجئ قبل أن يحمل شهادة الميلاد، يعيش في خيمة أو في بيت إسمنتي بسيط، وسط حياة كلها انتظار: انتظار للمساعدات، انتظار للعودة، انتظار لوطن ربما لن يرجع، لكنه سيعود.

أعدكم... ووعد الحرة دين عليها، ووعد الأحرار دين عليهم. نحن شرفاء غزة، نحن الفلسطينيون الأحرار.

الفلسطيني في العالم:

فلسطينيو العالم يسمعون عن بلدهم، لكن أغلبهم لم تطأ أقدامهم فلسطين، لا يتجولون في أزقتها ومدنها إلا عبر الصور الإلكترونية، جوجل ماب فقط لا غير.

الفلسطينيون في العالم يسمعون عن زيتون أجدادهم، عن برتقال مدنهم، عن خيرات، عن حدائق، عن جنان غناء، عن شوارع لا يستطيعون أن يتجولوا فيها.

هم محرومون من هويتهم، أرضهم، وطنهم، وأحياناً محرومون حتى من هوية البلد الذي احتضنهم أو كان مسقط رأسهم.

الفلسطيني في العالم لا أرض له، ولا انتماء.

هو يسير بجناح لا يعرف له مستقرة، لا الأرض أرض الأجداد، ولا أرض مسقط الرأس.

الفلسطيني في العالم:

الفلسطيني في العالم... منهم من لم يحمل جواز سفر حقيقي، بل أحياناً جواز سفر الاحتلال، وأحياناً وثيقة من الأمم المتحدة. نجوم الفلسطيني في العالم لم يشعر يوما أنه مواطن كامل، بل ينتمي إلى أنصاف وأشباه المواطنين في العالم، وهم كُثر.

في المدرسة يتعلم الكثير عن فلسطين كأنها أحلام وردية، وفي البيت تحكي له أمه عن البحر، لكنه لا يستطيع أن تطأ قدمه هذا الحلم. يسمع عن المفتاح الذي ظل معلقًا على الحائط، ويسمع عن الحق الذي مهما طال الزمن، لن يضيع أبدًا.

اللاجئ الفلسطيني:

اللاجئ الفلسطيني لا ينسى، ولا يقبل أن يكون مجرد رقم، ولا يسلم بالغربة. ظلّه قامة ترفع رأسها شامخة، يربي أولاده على الحب الفريد للوطن، لوطن لا كالأوطان، لبلد لا كالبلدان.

وطن أسطورة الزمان، اسمه فلسطين، خطّه الغزيون بدمائهم، حرفًا حرفًا، وعلى الإيمان بالعودة، ولو بعد حين. الفلسطيني يقسم على كل حجر، وفي كل سنة.

الشباب الفلسطيني:

الشباب الفلسطيني لا يستسلمون، وكلما انهالت الضغوطات عليهم ازدادوا تحدياً. وكلما اعتقلوا، عادوا أقوى.

وكلما استشهد صديقهم، أصبح دم الشهيد نارا في عروقهم، ولهيبا في صدورهم، ونارا قائظة في عيونهم، شرارة لا تنطفئ أبداً.

هؤلاء الشباب لا يعرفون لليأس طريقة. ولو أخذوا واحداً، يفرخون عشرة مكانه. ولو ازدادت أعدادهم، يرمي باليد الأخرى حجارة. ولو هددوا، يردون بابتسامة عنيدة لا تُقهر.

الشباب الفلسطيني الأحرار:

الشباب الفلسطيني الأحرار يواجهون الاحتلال، يواجهون الجنود بالحجارة، بأعناق شامخة، منتصبة القامة، بخطى ثابتة، وبعزيمة تقول: لا للانسحاب، لا للعيش بلا كرامة.

هؤلاء الشباب تربَّوا وكبروا على صور الشهداء، وتربَّوا على قصص المعتقلين، وحافظوا أسماء الذين سقطوا فداء لفلسطين. لم يحفظوهم فقط، بل صاروا امتدادًا لهم، مشعلًا يسلمه الحر للحر، الأب لابنه، والابن للجيل القادم.

حتى لو تعبوا، ولو انقهروا، ولو ظلوا في أرق صابرين، فهم للمواجهة، والعدم التراجع متبنون، لأنهم يعرفون أن الدماء المهدورة لم تكن سوى غالية، عزيزة، لا مستباحة.

والشهداء الذين وُهلوا على جنة الفردوس، لا بد أن يكمل دروبهم شهداء المستقبل.

أنا فلسطيني/فلسطينية:

هم يعلمون أن المسيرة لا بد أن تستمر، وأن يواصلها أولئك الذين ورثوا أرضًا وعرضًا، ورثوا فلسطين الأبية.

فالطريق لا يموت، والحق لا ينطفئ مع أبناء فلسطين.

أنا فلسطيني، أنا فلسطينية، يعني أن حلمي محاصر، لكن قلبي ليس بالمقصور، وصوتي مخنوق نعم، لكن روحي حرة، يعني أنا ابن الأرض، أنا ابنة الأرض. الأرض لي، ولو سرقوها، ولو قيدونا، ولو نسونا، ولو اغتصبوا حقوقنا وكرامتنا، وسنظل نصيح بأصواتنا عاليا.

أنا فلسطيني حر، أنا فلسطينية حرة. رجال نحن في زمن الذكور، نساء حرائر بنات رجال، في زمن التفاهة.

الفجر، الساعة الثانية والنصف صباحا، في يوم الأربعاء الثلاثين من يوليو ...

رسالة من داخل السجن

إلى كل من لا يزال يسمع، أو يحاول أن يسمع، إلى كل القلوب الحية التي لم يغرقها القهر والوجع.

أنا ابنة فلسطين، من رحم الأرض.. أكتب لكم هذه الكلمات من داخل زنزانة ضيقة تسمَّى خيمة، لكن روحي أوسع من كل الجدران، وقلبي ينبض بالحياة رغم الألم.

أنا هنا لا لأطلب الرحمة من أحد أو الشفقة، بل لأصرخ بالحق، لأخبركم أن هناك آلافًا منا خلف القضبان، خلف الأسوار، خلف السجون. أناس قُتلت ضمائرهم قبل أجسادهم، وأصواتهم خُنقت قبل أن تُطلق.

أمهاتنا يُجرَّدن من أحلامهن، وأطفالنا ينشؤون على خوف ليس له نهاية.

في غزة نحن لا نحيا كما يعيش الناس، بل نحيا كأننا في انتظار موت بطيء، في معاناة يومية بلا صوت، بلا شفقة، بلا اهتمام. الحياة هنا ليست حياة، بل جحيم متواصل؛ حيث لا حرية للتعبير، ولا مجال للحق، كل كلمة نقولها تُراقَب، وكل نظرة تُحاسب.

في كل بيت هنا قصة حزن لا تنتهي: قصة أُسر فقدت أبناءها، وبيوت دُمرت، وأحلام كُسرت، وشباب نُسف مستقبلهم، ونساء تحملْن أعباء الألم وحدهن.

وكل يوم نسمع عن فقد جديد: عن طفل قُتل، عن مريض لا يجد دواءه.

ولكننا في غزة ما زلنا نصرخ في صمت، نكتب بالدموع كلمات لا تصلكم، ونحلم بيوم نُسمع فيه ونُشاهد فيه، أن نُحترم فيه كأشخاص، من داخل السجن الكبير الذي يسمونه وطنا.

من غزة العزة، حيث لا شيء يشبه الحياة، سوى تمسُّكنا بها.

أكتب إليكم أنا الفتاة الفلسطينية، لا أحمل بندقية، بل قلبي وقلمي وصوتي الذي لم ينجحوا في خنقه بعد، ولن ينجحوا أبدًا في إخراسه.

أكتب لكم من بقعة من الأرض محاصرة منذ أكثر من سبعة عشر عاما، من مكان لا يعرف فيه الناس متى ينقطع الخبز، أو ينقطع الماء، أو تنقطع الكهرباء، ولا متى يسقط عليهم الموت من السماء دون سابق إنذار.

هنا لا نعرف الأمن ولا الأمان، لا نعرف الراحة ولا الخصوصية، ولا نملك أبسط حقوقنا كآدميين. غزة، لست مدينة، بل أنت سجن، سجن مفتوح على السماء، مغلق في كل الاتجاهات.

أكتب إليكم من سجن تُسرق فيه دماؤنا وأرواحنا، ويُحاصر فيه رزقنا، ويكسر فيه حلمنا وحلم أطفالنا منذ الولادة.

من سجن يعاقب فيه الأب لأنه حاول أن يطعم أبناءه، وتُحاصر فيه الأم لأنها أرادت أن تعالج صغيرها، ويقتل فيه الطفل لأنه ولد في المكان الخطأ وفي الزمن الخطأ في نظر هذا العالم.

هنا في هذا السجن لا نملك رفاهية الحلم، لكننا نحلم، وسنواصل الحلم إلى الأبد، نحلم رغم أن الحلم نفسه صار تهمة، نحلم رغم أن الكلمات تُحاصر قبل أن تُقال، نحلم رغم أن الموت صار أقرب إلينا من الحياة.

نحن لا نطلب المستحيل، نحن نريد أن نعيش، نريد أن نمشي في الشارع دون أن نُعدّ أهدافًا للقتل، نريد أن ندرس دون أن نتحطم، أن نكتب دون أن نخاف، أن نتنفس دون أن نحسب أنفاسنا الأخيرة.

نحن شعب لا يترف بالحياة، بل يحبها، رغم أنها لا تحبنا كثيرا. نكتب لأن الكتابة آخر ما تبقى لنا، نصرخ لأن الصمت صار موتا بطيئا، نحلم لأن الواقع لم يمنحنا شيئا آخر.

رسالتي هذه من قلبي، من قلب كل فتاة في غزة، من فؤاد كل أم، وفؤاد كل شاب، كل مُسن، كل طفل، من خلف الركام، من تحت التراب، من فوق جراحَنا، نرسلها إلى أمة العالم التي نسيتنا، وإلى عالم أدار ظهره.

أما الشاشات، فلا تسمع إلا ما يبث على قنواتها. نحن نُقتل كل يوم، لكننا لا نموت ولن نموت أبدًا.

نُكسر، لكننا لا ننهار ولن ننهار أبدًا. ننزف، لكننا نبتسم في وجه الموت، لأن في قلوبنا إيمانًا واحدًا: أن الله لا ينسى المظلومين، وأن الفجر قادم مهما طال هذا الليل.

إلى من يقرأ، أنتم أيها القراء: هذه ليست رسالة هينة، بل رسالة صادقة من شعب يدفن حيًّا كل يوم وأنتم تنظرون إليه، ثم تعودون لتقفوا صامتين. لا تنسونا، لا تصموا آذانكم عن وجعنا، لا

تغمضوا عيونكم عن حقيقة سجننا الكبير. غزة ليست مجرد خريطة، غزة قلب.. غزة نبض.. وغزة سجن... نعم.

لكننا نحن الأسرى الذين لا ينكسرون، نحمل المفاتيح، ونحفر الأمل في الجدران، ونقسم أننا يوما سنحرر هذا السجن من حولنا أو نموت واقفين.

ربنا هو أملنا، هو ملجؤنا، هو من يقوينا على هذا الألم.

نؤمن بأن الليل مهما طال فإن الفجر قادم لا محالة، نؤمن بأن هذه الجدران ستنهار، وأن السجون ستفتح أبوابها، وأن الحرية ستعود لنا يوما، إن شاء الله قريبا.

سأكتب حتى آخر نفس، حتى لو اختنق الحبر من الدقات، وتمزقت الأوراق تحت القسوة، حتى لو بقي صوتي وحيداً بين الأنقاض، سأكتب... لأن قضيتي لا تموت، ولأن شعبي لا يكسر، ولأنني ابنة غزة ولدت في وطن جريح، لكن قلبي نابض بالحياة، وبالإيمان أن الله لن يخذلنا.

فأكتب وسأكتب، وسأظل أكتب، لأن كل حرف نكتبه اليوم قد يكون غداً شهادة على حقٍ أُريد دفنه، ولكننا نؤمن بأن الجدران ستنهار، وأن السجون ستفتحُ أبوابها، وأن الحرية ستعود لنا يوما، قادمة... قادمة، نورها من بعيد يناديا.

"منذ بداياتي مع الكتابة تعلّمت أن الحروف قادرة على احتضان ما عجزنا عن قوله بصوت مسموع.

أحيانًا تترجم الورق ما يعجز القلب عن البوح به، أو ما قلناه ولم نجد من ينصت إليه.

الحياة قست علينا كثيرا، وتركت فينا وجعا كبيرا، لكني حاولت أن أجمع شتات روحي المبعثرة وأُلملم بقاياي في حروف متناسقة، لعل الكتابة تُنقذ ما تبقّى مني".

تم بحمد الله

بقلم هديل حمد

30/7/2025

انضم إلى مجموعة دار بسمة على واتساب، من هنا

اشترك في نشرتنا البريدية لتتوصل بآخر إصدارتنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداعَ.

المحتويات

الإهداء.....6
المقدمة.....10
الفصل الأول البيت الذي يشبه الزنزانة 14
الفصل الثاني: الشتاء الذي لا يأتي بالدفء.....22
الفصل الثالث: الخبز أمنية منسية في غزة 29
الفصل الرابع: الطفل الذي صار عجوزًا.....34
الفصل الخامس: غزة بدون صوت 40
الفصل السادس: أمهات الشهداء 47
الفصل السابع: حلم جامعي في خيمة 51
الفصل الثامن: الغربة في الوطن.....61
الفصل التاسع: لا تذرفي الدمع.....68
الفصل العاشر: أنا فلسطيني.....77

هديل حمد، فلسطينية الوطن، والقدس الهُوية، أما الروح فهي غزة، مواليد 2003، طالبة جامعية تخصص إرشاد نفسي.
تتحدث العربية والتركية والإنجليزية.
تحب القراءة والكتابة والأدب و"السجن الفلسطيني" باكورة أعمالها.

السجن الفلسطيني

رواية

سأكتب حتى آخر نفس، حتى لو اختنق الحبر من الدقات، وتمزقت الأوراق تحت القسوة، حتى لو بقي صوتي وحيدًا بين الأنقاض، سأكتب... لأن قضيتي لا تموت، ولأن شعبي لا يُكسر، ولأنني ابنة غزة وُلدت في وطن جريح، لكن قلبي نابض بالحياة، وبالإيمان أن الله لن يخذلنا.

فأكتب وسأكتب، وسأظل أكتب، لأن كل حرف نكتبه اليوم قد يكون غدًا شهادة على حقٍّ أُريد دفنه، ولكننا نؤمن بأن الجدران ستنهار، وأن السجون ستفتح أبوابها، وأن الحرية ستعود لنا يومًا، قادمة... قادمة، نورها من بعيد ينادينا.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com